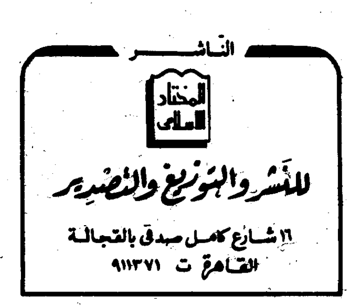
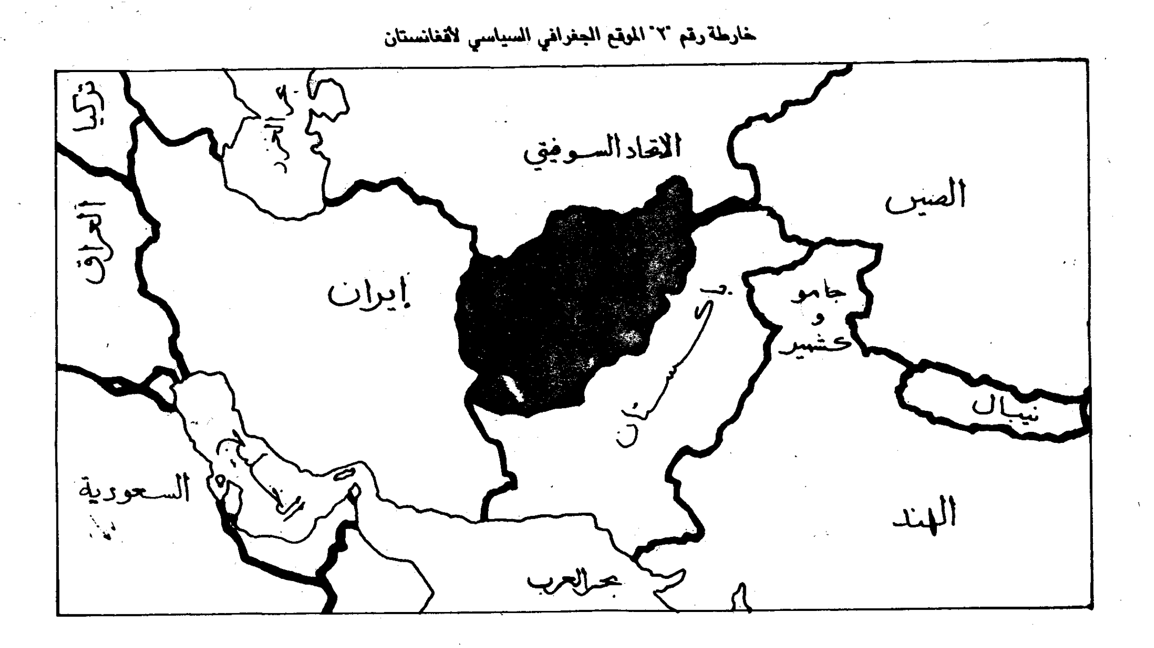
د. محمد مورو

انتصار الأفغان وسقوط المنجل والسندان



بسم الله الرحمن الرحيم

خارطة رقم "٢" الموقع الجغرافي السياسي لأفغانستان



مقدمة

لا شك ان تجربة الجهاد الأفغانى ستكون لها آثار قريبة وبعيدة على كل مستوى، على المستوى الأفغانى، وعلى المستوى الآسيوى وعلى مستوى العالم الإسلامى كله بل وعلى مستقبل العالم بأسره.

فكما استطاع الجهاد الأفغانى ـ بفضل الله ـ ثم بفضل صلابة الرجال، أن يحقق الصمود والنصر ضد قوى عاتية بل واستطاع أن يدمر هذه القوى من داخلها ويتسبب فى انهيار الشيوعية، وتفكك الاتحاد السوفييتى، فإن الجهاد الإسلامى فى فلسطين ـ بفضل الله ـ أيضاً سيكون قادراً على تحرير كامل التراب الفلسطينى من النهر إلى البحر ومن الجنوب إلى الجنوب بعد أن فشلت فى ذلك المنظمات الفلسطينية العلمانية، والجهاد الإسلامى عموماً فى كل مكان سوف يكون قادراً على إسقاط الرأسمالية وتفكيك أمريكا بإذن الله تعالى وتحرير العالم بكامله من الاستكبار والظلم والنهب وتحقيق عالم تسوده قيم الإسلام السمحة القائمة على التوحيد، الحرية، العدل، بعد أن عانى العالم طويلاً من قيم الحضارة الغربية القائمة على الوثنية والقهر والعنصرية والنهب.

لقد استطاع الجهاد الأفغانى من خلال الإيمان والبندقية أن يعيد بعض ملامح الوحدة الثورية على الأقل بين شعوب العالم الإسلامى، التى توحدت على مستوى الشعوب والأفراد فى عاطفتها تجاه ذلك الجهاد وفى تقديمها ما أمكن من الدعم له، ولعل هذه البادرة الوحدوية التى صنعها الجهاد الأفغانى تكون نواة لوحدة المسلمين إن شاء الله.

واستطاع الجهاد الأفغانى أن يعيد إلينا العديد من الحقائق التى غيبوها عنا طويلاً ومنها أن الإسلامية شرط أساسى من شروط النصر، وإلا فلماذا انتصر الأفغان رغم قلة السلاح والزاد

على أكبر قوة عسكرية فى ذلك الوقت ولماذا لم يستطع العرب والفلسطينيون تحقيق النصر على الكيان الصهيونى ومنها أن مدد الله تعالى لا ينقطع عن المجاهدين بشرط الإيمان وبذل الجهد.

ومنها أن الإنسان أقوى من الآلة، فمهما كانت كفاءة السلاح وتفوقه فإن الإنسان قادر بالصبر والشجاعة على تجاوز هذا التفوق وقادر على تحقيق الانتصار فى كل الظروف وفى أسوأ الأحوال، فالأصل هو الإنسان.. ولعل هذا يجعلنا نقرر بوضوح أن أمتنا قادرة بفضل الله تعالى على تجاوز كل التحديات مهما كانت كبيرة إذا امتلكت الإيمان والإرادة وبذلت كل ما فى وسعها من جهد وطاقة.

ومنها أن المقاتل المسلم كفء بطبيعته، وشجاع بفطرته وإيمانه، وقادر على النصر إن شاء الله.

ومنها أننا إذا قاتلنا إنتصرنا، فقد هزمنا ضد إسرائيل لأن القيادة السياسية لم تسمح للمقاتل المسلم بالقتال، وانتصرنا فى أفغانستان لأن المسلم قاتل فانتصر.

ومنها إن إرادة القتال هى الأساس، فالذين بدأوا مسيرة الجهاد فى أفغانستان كانوا أفراداً قلائل ولا يمتلكون من السلاح إلا بنادق قديمة من الحرب العالمية الثانية ومع الإصرار تزايد عددهم وانتزعوا السلاح من يد عدوهم إلى أن حققوا النصر النهائى على أكبر جيش فى العالم عدداً وعدة.. ومنها أن العالمية الإسلامية الثانية تتشكل ملامحها فى آسيا الوسطى ونأمل فى أن تبدأ مسيرتها المظفرة من تلك المنطقة من العالم إن شاء الله.


الجغرافيا
و
التاريخ

تقع أفغانستان فى قلب آسيا، وهى دولة قارية أى بلا منافذ بحرية وتمتد الحدود الدولية لأفغانستان لمسافة ٥٧٦٩ كم، منها ٢٣٨٣ كيلومترا مع الاتحاد السوفييتى السابق فى الشمال و٧١ كم مع الصين فى الشرق و٢٤٦٦ كم مع باكستان فى الشرق والجنوب و٨٤٩ كم مع إيران فى الغرب، وتبلغ مساحة أفغانستان ٦٥٢٢٢٥كم٢، ويشبه شكلها شكل ورقة الشجرة، وعاصمتها كابول وأهم المدن هى مزار شريف فى الشمال، هيرات فى الغرب، قندهار فى الجنوب، جلال أباد فى الشرق، وتنقسم أفغانستان إلى ٣١ ولاية وتنقسم كل ولاية إلى مديريات التى تنقسم بدورها إلى مراكز وقرى. أما عن السطح والمناخ فتنقسم أفغانستان إلى ثلاث مناطق رئيسية هى: السهول الشمالية وتتمتع هذه السهول بتربة خصبة تكثر فيها الزراعة ورعى الأغنام ويبلغ متوسط درجة الحرارة فى هذه المنطقة ٣ درجات مئوية فى يناير و٣٢ درجة مئوية في يوليو ويبلغ المعدل السنوى للأمطار فى هذه المنطقة ١٨سم٣، والمرتفعات الوسطى وتغطى هذه المرتفعات ثلثى مساحة أفغانستان وتتكون من جبال الهند وكوش الشاهقة ويبلغ أقصى ارتفاع لها حوالى ٧٦٢٠م ويبلغ متوسط درجة الحرارة فى هذه المنطقة ٤ درجات مئوية تحت الصفر فى يناير و٢٤ درجة مئوية فى يوليو.. ويبلغ المعدل السنوى للأمطار هناك ٣٨سم٣، والهضبة الجنوبية الغربية وتتكون أساساً من أراض صحراوية وتقع فى جنوب غرب أفغانستان ويبلغ متوسط ارتفاعها ١٠٠٠م ومساحتها ٨٠ ألف كيلومتر مربع،

والمعدل السنوى للأمطـار فيها ٢٣.٥سـم³ ويبلـغ متوسط درجة الحرارة فيهـا ٢ درجة مئوية فى يناير و٢٩ درجة مئوية فى يوليو وتوجد فى أفغانستان أربع مجموعات نهرية أساسية.. هى: مجموعة نهر أموداريا، مجموعة هارى رود فى الشمال الغربى، مجموعة هلمند فى الجنوب، مجموعة نهر كابل فى الشرق.

يبلغ عدد سكان أفغانستان ١٦ مليون نسمة، ويوجد بها ٢٠ جماعة عرقية أهمها البشتون والتاجيك الذين يشكلون ٧٠٪ من السكان بينما الأوزبك ٦.٦٪ فالأيماق ٣.٥٪ فالفاراسون ٢.٥٪ فالهزارا «٣.٣ - ٣.٦٪».

وسكان أفغانستان معظمهم من المسلمين السنة على المذهب الحنفى من ٨٢ ـ ٩٠٪ وشيعة ٨ ـ ١٧٪، بالإضافة إلى أقليات صغيرة جداً من الهندوس والسيخ واليهود لا يتعدى مجموعها ١٪.

وأهم اللغات هى البشتو والدارى «لهجة فارسية ويتحدث بهما حوالى ٨٠٪ من الشعب الأفغانى».

* * *

والتاريخ المعاصر لأفغانستان يبدأ من عام ١٧٤٧ عندما أسس أحمد خان الأبدالى «أحمد شاه بابا» دولة أفغانستان واتخذ من قندهار عاصمة له. وبسبب موقع أفغانستان الجغرافى تنافس عليها العديد من القوى الدولية الطامعة، فحدث صراع بين الإمبراطوريتين البريطانية فى الهند والروسية خلال القرن التاسع عشر، وقد تشكلت حدود أفغانستان

الحديثة بناء على هذا التنافس لتصبح دولة عازلة بين هاتين الإمبراطوريتين. وفي القرن العشرين ظلت أفغانستان أيضاً بسبب موقعها الجغرافي ميداناً للتنافس الأيديولوجي والتجاري بين روسيا ثم الاتحاد السوفييتي فيما بعد وبريطانيا، ثم الإتحاد السوفييتي وأمريكا. وقد خاضت أفغانستان العديد من الحروب ضد بريطانيا التي كانت تستهدف السيطرة عليها لتضمها إلى إمبراطوريتها الهندية في آسيا، فقد خاضت أفغانستان الحرب ضد بريطانيا ١٨٣٩ ـ ١٨٤٢ وأسفرت عن أسوأ هزيمة لبريطانيا في التاريخ الحديث وانسحبت قواتها من أفغانستان ثم عاودت بريطانيا الكرة ١٨٧٨ ـ ١٨٨٠ وانتهت أيضاً هذه الحرب بانسحاب القوات البريطانية وتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين، ثم مرة أخرى سنة ١٩١٩ عندما طالبت أفغانستان باستعادة مقاطعة بشتوتستان من بريطانيا واستمرت هذه الحرب عدة أسابيع تقهقرت فيها القوات البريطانية إلى داخل الهند يتبعهم الأفغان مما اضطر بريطانيا لتوقيع معاهدة روالبندي في ٨ أغسطس ١٩١٩ التي اعترفت فيها بريطانيا باستقلال أفغانستان داخلياً وخارجياً.

وبسبب الموقف الدقيق لأفغانستان في إطار الصراع بين القوى العظمى فإنها التزمت الحياد في الحربين العالميتين الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ والثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥.

وعلى الجانب الآخر، أي من ناحية الإمبراطورية الروسية ثم السوفييتية فإن العلاقات الأفغانية معها مرت بالعديد من الأحداث،

فقد عقدت أفغانستان وروسيا معاهدة سنة ١٨٧٣ لرسم الحدود بينهما واعترفت فيها باستقلال أفغانستان وسيادتها على أراضيها ، إلا أن الروس فى سنة ١٨٨٥ خرقوا تلك المعاهدة واستولوا على جزء من الأراضى الأفغانية فى الشمال، وأجبرت أفغانستان على القبول بذلك، فى مقابل تأكيد اعتراف روسى بسيادة أفغانستان على باقى أراضيها ، وفى عام ١٩٢١ وقعت أفغانستان مع الإتحاد السوفييتى الذى كان قد ظهر لتوه بعد الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ معاهدة للصداقة والتعاون بين البلدين، وفى عام ١٩٥٦ زادت المساعدات الروسية لأفغانستان وكذلك النفوذ السياسى والأيديولوجى، ثم جاء الإنقلاب الشيوعى فى أفغانستان فى ٢٧ ابريل ١٩٧٨ ثم توقيع اتفاقية صداقة مع السوفييت فى ١٩٧٨/١٢/٥ ثم الغزو السوفييتى لأفغانستان فى ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩.

وقد تعاقب على حكم أفغانستان عدد من الملوك بدءاً من أحمد شاه بابا ١٧٤٧ وانتهاء بالملك ظاهر شاه من ١٩٣٣ ـ ١٩٧٣ ثم أطاح به رئيس وزرائه محمد داود فى ١٧ يوليو ١٩٧٣ وأعلن قيام الجمهورية فى أفغانستان ثم جاء الإنقلاب الشيوعى سنة ١٩٧٨ ليطيح بمحمد داود ليحل محله الحكم الشيوعى بقيادة نور الدين تراقى الذى ما لبث أن تعرض لإنقلاب على يد حفيظ الله أمين فى سبتمبر سنة ١٩٧٩ ثم تعرض حفيظ الله أمين لانقلاب دعم السوفييت بصورة مباشرة وجاء كارميل للحكم على يد السوفييت فى ديسمبر ١٩٧٩ ثم أقصى كارمل

عن السلطة وأحل السوفييت محله نجيب الله سنة ١٩٨٦ ثم تحررت أفغانستان من الحكم الشيوعى بالكامل على يد المجاهدين الأفغان فى إبريل ـ مايو سنة ١٩٩٢ وتم اعلان أفغانستان جمهورية إسلامية.

الحجر الأفغانى فى بطن الدب الروسى الإنقلاب الشيوعى والغزو السوفييتى

ظلت الإمبراطورية الروسية دائماً سواء تحت حكم القياصرة أو تحت حكم الشيوعيين فيما بعد تضع فى أهدافها دائماً ضرورة السيطرة على أفغانستان، وشهد تاريخ العلاقة بين البلدين العديد من الاحتكاكات أو معاهدات الصداقة على حد سواء وهى معاهدات تحمل فى طياتها النفوذ بالطبع!

ويرجع الاهتمام القديم الجديد من جانب الروس فى السيطرة على أفغانستان إلى حلم روسى قديم بالوصول إلى المياه الدافئة فى الخليج العربى الفارسى والمحيط الهندى وهو ما يسمى بحلم الملكة «كاترين» إحدى قياصرة روسيا وهذا الهدف يحقق للروس تواجداً بحرياً دائماً لأن معظم المنافذ البحرية الروسية تتجمد فيها المياه لفترات طويلة من العام مما يجعلها مجمدة ولذلك سمى حلم الملكة كاترين بحلم الوصول إلى المياه الدافئة أى التى تصلح للملاحة طوال العام.

وبعد الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ وظهور الاتحاد السوفييتى السابق، استمر هذا الحلم يراود الحكام الشيوعيين خاصة بعد أن أصبح الإتحاد السوفييتى قوة عظمى سياسية وعسكرية واقتصادية وأيديولوجية، وكان هناك بالإضافة إلى ذلك أن أفغانستان ستكون ممراً إلى البترول الذى أصبح سلعة استراتيجية هامة فى الصراع الدولى بين الكتلتين الشرقية والغربية، كما أن النظام الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى والذى كان قد نجح فى ضم خمس جمهوريات إسلامية اليه أراد أن يؤمن عدم سريان الثقافة الإسلامية من أفغانستان إلى تلك

الجمهوريات مما يسبب له قلقاً كبيراً، وهكذا كانت أفغانستان قد أصبحت فى نهاية السبعينات هدفاً كبيراً بالنسبة إلى السوفييت وبدأوا يتحركون لتحقيق حلمهم الذى طال طويلاً.

كانت خطة الشيوعيين الروس إقامة ودعم أحزاب شيوعية داخل أفغانستان تقوم هى بالمهمة فى ضم أفغانستان إلى الإتحاد السوفييتى، أى أن يتم ذلك فى الظاهر بأيد أفغانية وبطلب أفغانى دون وجود معارضة أفغانية قوية لهذا الأمر، وهكذا بدأ الروس فى دعم حزب شيوعى أفغانى منذ الأربعينات، وتطور هذا الحزب وانقسم إلى جناحين هما جناحا خلق وبرشام، وتلقى كلا من الجناحين الدعم الروسى الكامل، ومن ناحية أخرى كان الروس قد نجحوا فى اختراق الجيش الأفغانى اختراقاً كاملاً أيام حكم الرئيس محمد داود عن طريق البعثات التدريبية التى كان يقوم بها ضباط الجيش الأفغانى فى الاتحاد السوفييتى.

وجاء عام ١٩٧٨ ووجد السوفييت الفرصة سانحة لقيام انقلاب شيوعى فى أفغانستان يقوم هو بمهمة الحكم ثم طلب الإندماج فى الإتحاد السوفييتى وبذلك لا يظهر السوفييت أمام العالم وكأنهم غزاة أو محتلون أى تظل أيديهم نظيفة وتسقط الثمرة فى أفواههم .. وبالفعل قام ضباط الجيش الموالون للسوفييت بانقلاب عسكرى على محمد داود فى ٢٧ ابريل ١٩٧٨، وجاء الحزب الشيوعى الأفغانى إلى الحكم بقيادة نور الدين تراقى، ولكن حدثت مقاومة ضخمة من جانب الشعب الأفغانى والجيش الأفغانى لهذا الإنقلاب وتم ذبح وإعدام وقتل الآلاف فى هذا

الإنقلاب، واعترف السوفييت بالإنقلاب يوم ٣٠ ابريل ١٩٧٨.

ووجد الشعب الأفغانى نفسه وقد أصبح فى قبضة السلطة الشيوعية، ومن الطبيعى أن الاتحاد السوفييتى يتربص بأفغانستان وبالتالى سيكون مصير الشعب الأفغاني هو مصير كل الجمهوريات والشعوب الإسلامية التى وقعت فى القبضة السوفييتية وعانت وتعانى من ذل الأسر والقهر والقضاء على عقيدتها وثقافتها، وقرر الشعب الأفغانى أن يتصدى لهذا الأمر مبكراً قبل أن ينجح السوفييت فى تحقيق أهدافهم، وتصدت الحركة الإسلامية لقيادة الشعب الأفغانى فى ملحمة طويلة من الصمود والهجرة والجهاد.

ومع تزايد المقاومة الشعبية والرفض الشعبى للسلطة الشيوعية، بدأت الاتهامات بين عناصر السلطة تجاه بعضها البعض تحمل كل منهم الأخرى مسئولية هذا الفشل، وقام حفيظ الله أمين نائب رئيس الوزراء بانقلاب على نورالدين تراقى وقتله فى ١٤ سبتمبر ١٩٧٩، وأصبح حفيظ الله أمين رئيساً لأفغانستان إلا أن المقاومة الشعبية والإسلامية استمرت وتصاعدت ونجحت فى حصر السلطة الشيوعية داخل بعض المدن فقط، أما الجبال والأرياف فقد كانت تحت سيطرة المجاهدين.

وهنا وجد قادة الإتحاد السوفييتى أن الحزب الشيوعى الأفغانى وقياداته غير قادر على ضبط الأمور فى أفغانستان وتحقيق الهدف المنشود، فقرر التدخل العسكرى المباشر، وحرك بالفعل قواته بإتجاه أفغانستان، ولما علم حفيظ الله أمين بذلك طلب من السوفييت عدم

التدخل العسكرى المباشر لأن هذا سوف يؤدى إلى تأجج الثورة الشعبية وأن الجنود السوفييت لن يستطيعوا القضاء على هذه الثورة، ولكن السوفييت رفضوا هذه النصيحة، واستدعوا بابراك كارمل من المنفى، وقام الجيش السوفييتى الذى دخل أفغانستان بالفعل بالإطاحة بحفيظ الله أمين.. وجاء بابراك كارمل على الحراب السوفييتية مباشرة لدرجة أنه ألقى بيانه إلى الشعب الأفغانى عن طريق إذاعة طشقند وليس إذاعة كابول، وفى نفس الوقت كانت القوات السوفييتية تتدفق على أفغانستان براً وجواً وكان ذلك فى ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩.

وكان من الطبيعى أن بابراك كارمل الذى أصبح دمية فى يد السوفييت لا يستطيع إلا البصم على القرارات السوفييتية التى سبق اتخاذها، وهكذا كان أول قرار اتخذه «كارمل» هو استدعاء القوات السوفييتية إلى أفغانستان، ولكنها كانت بالفعل قد وصلت، وكان هذا المسلسل سبباً جديداً فى مزيد من استفزاز الشعب الأفغانى والتفافه حول حركات الجهاد الإسلامى ورفضه لحكم كارمل الذى كان مثل الدمية تماماً فى يد السوفييت، وكان من الطبيعى أن تتزايد المقاومة الشعبية للجيش السوفييتى والسلطة الشيوعية فى كابول وكان من الطبيعى أن يحدث المزيد من القمع والقهر للشعب الأفغانى، ولكن هذا الأمر لم يزد الشعب الأفغانى إلا إصراراً.

***

اتبعت السلطة الشيوعية فى كابول فى جميع أدوارها وكذا الجيش السوفييتى والمخابرات السوفييتية سياسة القمع الشامل للشعب الأفغانى، فلم تكن تتورع عن تدمير قرى بكاملها أو قصفها بالطائرات انتقاماً لمرور المجاهدين بها أو إيوائهم بها أو حتى بدون ذريعة، وشهدت أفغانستان خلال الحكم الشيوعى سيلاً منهمراً من المذابح والإعتقالات والمطاردات والتهجير ووصل عدد المهاجرين فراراً من السلطة الشيوعية حوالى ٥ ملايين أفغانى، ومن ناحية أخرى قامت الحكومة الشيوعية بمحاولة تجفيف منابع الإسلام عن طريق القضاء على التعليم الدينى فى المدارس والمساجد وتغيير المناهج الدراسية، بل واختطاف عشرات الألوف من الأطفال والصبيان وإرسالهم إلى الإتحاد السوفييتى لتلقى التعليم والتوجيه الأيديولوجى الشيوعى وإفقادهم كل مميزاتهم الحضارية الإسلامية، كما لعبت المخابرات الأفغانية المعروفة باسم الخاد، وكذلك المخابرات السوفييتية المعروفة باسم K.G.B دوراً كبيراً فى محاولة الإيقاع بين فصائل المجاهدين الأفغان أو اغتيال قادتهم أو استمالة بعض رؤساء القبائل أو حتى العمل داخل معسكرات الهجرة فى باكستان أو حتى زعزعة النظام الباكستانى بهدف تقليص الدعم الباكستانى للمجاهدين الأفغان، ولكن كل هذا ذهب أدراج الرياح بسبب قوة عقيدة الشعب الأفغانى وصبره وجهاده.

* * *

حاول بابراك كارمل تغيير شىء من استراتيجية القمع باتجاه

استراتيجية الخداع، فتظاهر ومن بعده نجيب الله، بالتدين أو احترام المشاعر الدينية، ولكن هذه الفترة نفسها شهدت تصعيداً خطيراً وكبيراً في العمليات العسكرية التي قام بها الجيش السوفيتي والجيش الأفغاني الحكومي ضد المجاهدين الأفغان، وبعد أن كات القوات السوفييتية في أفغانستان سنة ١٩٨٢ حوالي ٨٥ ألف جندي، زادت إلى ١١٥ ألف جندي عام ١٩٨٥، كما اتبع الجيش السوفييتي أسلوب الإبادة الجماعية وتدمير الزراعة والقضاء على البنية الأساسية للاقتصاد الأفغاني بهدف إخضاع الشعب الأفغاني للحكم السوفييتي والشيوعي.. ولكن هذا كله لم يحقق أي نتائج على الأرض، بل زاد التصعيد والصمود من قبل المجاهدين والشعب الأفغاني أمام الاحتلال السوفييتي والسلطة الشيوعية. ومع تزايد استنزاف الجهاد الأفغاني للجيش السوفييتي وتزايد الأعباء الاقتصادية المترتبة على هذا الغزو على الاقتصاد السوفييتي، وما أحدثه الجهاد الأفغاني داخل الجمهوريات الإسلامية السوفييتية، وكذلك مع تزايد عجز هذا الجيش عن القضاء على المجاهدين الأفغان رغم استخدام كل الوسائل، كان من الطبيعي أن يحدث هذا كله هزة في النظام السوفييتي الذي بدأ يراجع حساباته ويحلل أخطاءه ووصل هذا النظام من خلال تحليل أخطاءه في أفغانستان إلى الاندفاع باتجاه سياسة البيروسترويكا والجلاسنوست ليس على مستوى الحرب الأفغانية بل على كل المستويات في الاتحاد السوفييتي، الأمر الذي أدى في النهاية إلى انهيار الشيوعية وتفكك الاتحاد

السوفييتى. وفى إطار هذه المراجعة والمكاشفة قرر السوفييت تغيير وجه النظام فى كابول عن طريق استبدال بابراك كارمل بنجيب الله فى مايو سنة ١٩٨٦، وتواكب مع ذلك ظهور تصريحات سوفييتية بالنية فى الانسحاب من أفغانستان والوصول إلى تسوية سياسية.

وهكذا وبدءاً من عام ١٩٨٦ اتجه الوضع في أفغانستان من الحسم العسكرى الذى أصبح مستحيلاً إلى الحل السياسى، وحمل نجيب الله لواء الحلول السلمية وطرح أكثر من مبادرة للحل السياسى مع المجاهدين إلا أن المجاهدين رفضوها جميعاً لأن البندقية هى الطريق الوحيد والصحيح لانتزاع الحقوق.

وانتهى الأمر بالانسحاب السوفييتى من أفغانستان فى ١٥ فبراير ١٩٨٩، ولكن الدعم الاقتصادى والعسكرى والمعلوماتى لحكومة نجيب الله ظل قائماً، واستطاع نجيب الله أن يصمد فى السلطة بعد ذلك لمدة ثلاث سنوات ولكنه كان يعمل فى الوقت الضائع مدركاً أن سقوطه أصبح حتمياً وأن المسألة ليست إلا مسألة وقت لا أكثر ولا أقل، وفى إطار تشبث نجيب الله بالسلطة حاول أن يقدم ولاءه إلى الأمريكان بعد انهيار الاتحاد السوفييتى وطلب من الأمريكان أن يساعدوه بهدف منع وصول الإسلاميين إلى السلطة فى كابول على أساس أن الإسلاميين عدو مشترك لكل من نجيب والأمريكان ولم يمانع نجيب فى التخلى عن عقيدته الشيوعية التى تربى وعاش فى ظلها وأن ينقل ولاءه وعمالته من الشيوعية إلى الرأسمالية الأمريكية، وأحس المجاهدون بخطورة هذا

التكتيك الجديد الذى يتبعه نجيب الله خاصة وأن الأمريكيين يمكن أن يقبلوا بذلك خوفاً من الإسلاميين، فقرر المجاهدون قطع الطريق على نجيب الله والأمريكان معاً وأن يشـــددوا ضغطهم العسكرى والجهادى إلى أن تـــم لهـــم تحرير كل أفغانستان وإسقاط النظام الشيوعى فى كابـول ودخول كابـــول نفسها وإعـــلان الجمهورية الإسلامية فى أفغانســـتان فى ٢٦ ابريل ١٩٩٢.

الجهـاد الأفغاني ..

حرب شـامـلة في مواجهة

حـــرب شـــامـلة

استطاعت الحركة الإسلامية فى أفغانستان، أن تقود الشعب الأفغانى إلى طريق الجهاد والنصر على أقوى جيش فى العالم وأقوى أيديولوجية فى وقتها، بل ويكون هذا الجهاد سبباً فى انهيار هذه الأمبراطورية ونهاية هذه الأيديولوجية.

والأسباب كثيرة لهذا النجاح، أولها الإيمان بالله تعالى، ثم بعدالة القضية وثانيها: صلابة الشعب الأفغانى، وثالثها إستخدام أسلوب الحرب الشاملة سياسية وعسكرية وأيديولوجية وإقتصادية فى مواجهة حرب شاملة، وقبل هذا وبعده استخدام الأيديولوجية الصحيحة فى الخطاب الإعلامى لتعبئة الشعب الأفغانى، وهل يمكن تعبئة الشعب الأفغانى، أو غيره من الشعوب الإسلامية إلا من خلال الإسلام ؟!

والإسلام هو تاريخ وجغرافيا وعقيدة الشعب الأفغانى، ومنذ دخول الإسلام إلى أفغانستان وهو جزء لا يتجزء من الوجدان الشعبى الأفغانى، والحركة الإسلامية هى حلقة فى هذا الإطار، وقد بدأ نشاط الحركة الإسلامية* المعاصرة فى أفغانستان على يد غلام محمد نيازى الأستاذ بكلية الشريعة بجامعة كابول والذى أصبح عميداً للكلية فيما بعد، بدأ الشباب المسلم نشاطه وكانوا فى البداية أربعة عشر طالباً منهم عبد رب الرسول سياف، وربانى وغيرهما ممن قادوا الجهاد الأفغانى فيما بعد.. وفى سنة ١٩٦٩ شكل الطلاب جمعية إسلامية باسم «جوانان

---

* عبد رب الرسول سياف ـ نقلاً عن محمد عبدالقدوس فى كتاب «فى قلب أفغانستان» ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية.

مسلم» أى الشباب المسلم، وتغير اسمها فيما بعد وأصبح «الجمعية الإسلامية» وفى سنة ١٩٧٣ جرت انتخابات لاتحاد الطلبة فى جامعة كابول وفاز الاتجاه الإسلامى بمعظم المقاعد.. وبدأ الاتجاه الإسلامى فى النمو بشكل واضح رغم ضعف إمكانياته، وفى يوليو ١٩٧٣ أطاح محمد داود بالملك ظاهر شاه، وما أن تسلم محمد داود السلطة حتى بدأ فى العمل على تصفية الاتجاه الإسلامى، وقرر الاتجاه الإسلامى اللجوء إلى الكفاح المسلح، وسافر بعضهم إلى باكستان لشراء أسلحة، وعند عودتهم تم ضبطهم عداً واحداً أفلت بقنبلة، والغريب أنه لم يكن يدرى كيف يستخدمها، وعندما هاجم البوليس بيته ألقى القنبلة عليهم بطريقة عشوائية، ومن حسن حظه أنها انفجرت وأصابت عدداً منهم، وكان هذا بداية الكفاح المسلح.. وقد تعاظمت حركة المقاومة الإسلامية فى عهد داود على الرغم من اعتقال سياف وغلام نيازى مؤسسى الحركة الإسلامية وبلغ من حدة المقاومة أن استطاعت اغتيال مؤسس الحزب الشيوعى الأفغانى على يد عدد من الشباب المسلم برئاسة حكمتيار الذي أصبح فيما بعد أحد أهم قيادات المجاهدين الأفغان .

ثم جاء الانقلاب الشيوعى فى ٢٧ ابريل ١٩٧٨، وقرر الإتجاه الإسلامى تصعيد المقاومة، بدأ الجهاد الأفغانى بخمس بنادق قديمة من طراز لي أنفيلد، كما قام علماء الدين بإصدار فتوى بتكفير الحاكم الشيوعى، وقد أدت هذه الفتوى إلى انتفاضة شعبية وخاصة فى مدينة هيرات التى احتلها المجاهدون وقاموا بتصفية المستشارين السوفييت

فيها، وقامت القوات الشيوعية بعمل مذبحة فى مدينة هيرات، وتم قتل ثلاثين ألفاً فى يوم واحد، ومع ذلك تصاعدت المقاومة واستطاعت أن تحصل على سلاحها من يد أعدائها، وبعد أن كانت لا تملك إلا خمس بنادق عتيقة من طراز «لى أنفيلد» أصبحت تملك الكثير من السلاح الخفيف، بل ووصل عدد المقاتلين فيها إلى مئات الألوف وتعددت المنظمات الجهادية، وكان تعددها مفيداً نظراً لأن تنوع الأساليب التنظيمية والجهادية يجعل من الصعب السيطرة والقضاء عليها.

وفى تقرير لجريدة الشرق الأوسط (عدد ١٩٩٢/٤/٢٧) نقلاً عن مؤسسات المجاهدين فى لندن وبيشاور وطهران، وصلت فصائل المجاهدين إلى الآتى :

جدول فصائل المجاهدين الأفغان			
اسم الفصيل	زعيم الفصيل	القائد العسكرى	عدد القوات
الجمعية الإسلامية	برهان الدين ربانى	أحمد شاه مسعود	٦٠ ألفا
الحزب الإسلامى	قلب الدين حكمت يار	حكمت يار	٥٠ ألفا
الحزب الإسلامى (القيادة)	الشيخ يونس خالص	-	٣٠ ألفا
الاتحاد الإسلامى	عبد رب الرسول سياف	-	١٨ ألفا
الجبهة الوطنية الإسلامية	بير أحمد الجيلانى	-	١٥ ألفا
جبهة التحرير الوطنى	صبغة الله مجددى	ذبيح الله مجددى	١٥ ألفا
حركة انقلاب إسلامى	محمد نبى محمدى	-	٢٥ ألفا
سازمان ـ نصر	-	-	٤٠ ألفا
الحركة الإسلامية	-	-	٢٠ ألفا
حرس الجهاد	-	-	٨ آلاف
حزب الله	-	-	٤ آلاف
حزب النهضة	-	-	٤ آلاف
حركة الشورى والاتفاق	-	-	٣٠ ألفا

وإذا حاولنا أن نعطى صورة عن أهم حزبين جهاديين وهما: حزب الجمعية الإسلامية، والحزب الإسلامى.. وهما الحزبان اللذان دخلا كابول الأول من الشمال والثانى من الجنوب.. نجد أن حزب الجمعية الإسلامية الأفغانية هو أقوى الأحزاب الأفغانية ويتولى رئاسته الأستاذ برهان الدين ربانى وهو من مواليد ١٩٤١، تخرج فى كلية الشريعة فى كابول سنة ١٩٦١ وحصل على دراسات عليا من جامعة الأزهر بمصر، ثم عمل مدرساً فى كلية الشريعة بكابول، وكان من مؤسسى حركة الشباب المسلم فى أفغانستان مع الأستاذ غلام محمد نيازى سنة ١٩٦٩ متزوج وله عشرة أولاد، أما القائد العسكرى للجمعية الإسلامية فهو المهندس أحمد شاه مسعود (٣٣ سنة) وهو الملقب بأسد بانشير ويتمتع بقدرات استراتيجية عالية ومعظم نفوذه فى الشمال.. أما الحزب الإسلامى فيرأسه المهندس قلب الدين حكمتيار وهو من مواليد ١٩٤٩ تخرج فى كلية الهندسة وله علاقات واسعة فى الشرق والجنوب، ويعد من أهم الشخصيات الجهادية الأفغانية ويصفه الإعلام الغربى بالتشدد..

وقد استخدم الجهاد الأفغانى بكل فصائله أسلوب المواجهة الشاملة فى مواجهة الحرب الشاملة التى شنها الجيش السوفييتى والسلطة الشيوعية، فعلى مستوى الحرب العسكرية استخدم الجهاد الأفغانى أسلوب حرب العصابات وعمليات الكمائن وقطع قوافل الإمداد وقد كان هذا الأسلوب مثالياً بالنظر لضخامة قوة الإمداد وبالنظر إلى الطبيعة الجغرافية لأفغانستان، واستطاع المجاهدون الأفغان أن يواجهوا بهذا

الأسلوب الجيش التابع للسلطة الشيوعية (١١٠ ألف جندى)* وكذلك الجيش السوفييتي الذى وصل تعداده سنة ١٩٨٥ إلى ١١٥ ألف جندى منهم عشرة آلاف جندى من القوات الجوية، وكذلك ٢٠٠٠ من المستشارين السوفييت داخل الأجهزة والجيش التابع للسلطة الشيوعية، بالإضافة إلى أعداد كبيرة تابعة لجهاز المخابرات السوفييتى الـ K.G.B وتصل إلى خمسة آلاف فرد.

وكانت هناك أيضاً قوات رمزية من معظم الدول الشيوعية مثل كوبا وألمانيا الشرقية وبلغاريا بل واليمن الجنوبى !

وقد استخدمت قوات الغزو الطائرات المقاتلة والقاذفة والمروحية وكذا جميع أنواع الدبابات والعربات المصفحة وجميع الأسلحة الحديثة بما فيها الأسلحة الكيمائية إلا أن هذا لم يفلح فى القضاء على المقاومة الأفغانية.

* * *

ولم تقتصر المواجهة على العمليات العسكرية فقط، بل كان على المجاهدين أن يخوضوا مواجهة شاملة، كان عليهم إعادة بناء ما تهدم أثناء العمليات العسكرية وخاصة فى قطاع الزراعة والرعى والبنية الأساسية، وكان عليهم عمل مدارس تحت القصف ومستشفيات حتى تستمر العملية التعليمية والعلاجية للسكان فى ظروف الحرب.. كان

---

* التحق عدد كبير منهم على فترات متلاحقة بالمجاهدين ونزل عدد الجيش الأفغانى التابع للسلطة الشيوعية إلى ٣٠ ألف جندى عام ١٩٨٦.



عليهم تدبير الطعام والشراب وسبل الحياة من علاج وتعليم رغم الحرب وخاصة فى الأماكن المحررة، كان عليهم تدبير الحياة لخمسة ملايين مهاجر، من خيام للإيواء إلى تعليم إلى علاج إلى طعام إلى شراب... الخ.. وقد نجح المجاهدون فى ذلك أيما نجاح.. كانت الحياة مستمرة تحت القصف فى المهجر أو فى الأماكن المحررة، ووصل الأمر إلى حد إنشاء الجامعـات.

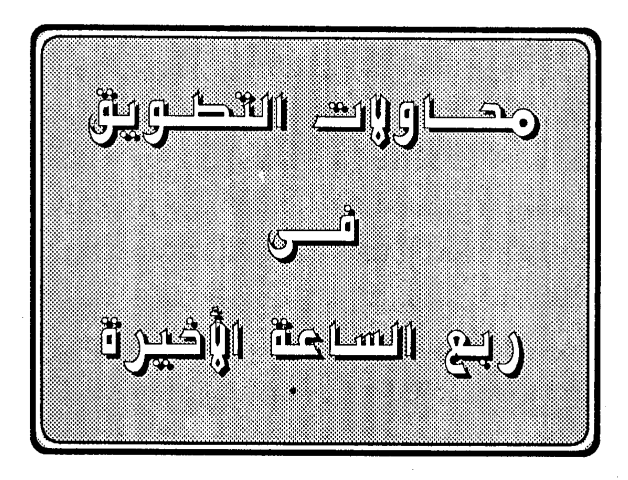
كان عليهم مواجهة أساليب جهاز المخابرات السوفييتية K.G.B والأفغانية «الخـاد» وكان عليهم إفساد مخططات هذه الأجهزة فى المهجر أو مع القبائل أو غيرها، وأن ترد على حرب الشائعات ووسائل الوقيعة بين المجاهدين، بل ووصل الأمر إلى حد أن المجاهدين نجحوا فى اختراق هذه الأجهزة من الداخل واستفادوا هم من المعلومات التى حصلوا عليها من داخل هذه الأجهزة فى صراعهم السياسى والعسكرى.

كان عليهم أيضاً أن يواجهوا الحرب الأيديولوجية، ومحاولات القضاء على الثقافة الإسلامية لدى الشعب الأفغانى، وزرع الشيوعية محلها، ونجح المجاهدون فى ذلك أيما نجاح حتى لقد جعلوا الجنود السوفييت أنفسهم يدخلون فى الإسلام وينضمون إلى الجهاد، كما نجحوافى توصيل المصاحف إلى قلب روسيا ونشر الثقافة الإسلامية فى الجمهوريات الإسلامية فى الإتحاد السوفييتى السابق، وفى إقناع الجنود من أصل إسلامى فى الجيش السوفييتى بترك هذا الجيش، أو التمرد أو حتى الإنضمام إلى المجاهدين.

وأكثر من هذا كان عليهم تدبير الحياة والإستمرار للأرامل والأيتام وأسر الشهداء.

على أن معجزة المجاهدين كانت فى نجاحهم فى التصدى للبلاء القادم من الغرب تحت ستار المساعدة الإنسانية وهى المنظمات التنصيرية التى جاءت من أمريكا وأوروبا تحمل الصليب لتقدمه إلى الشعب الأفغانى فى الداخل أو فى معسكرات الهجرة من خلال رغيف العيش أو زجاجة الدواء وفى ظل أوضاع معيشية وصحية قاسية.

ومن أعظم منجزات الجهاد الأفغانى، إصراره المستمر على عدم السقوط فى فخ التفاوض، وهو الفخ الذى نصبه الكثيرون لهم، لأن الجهاد الأفغانى، على عكس منظمة التحرير الفلسطينية للأسف، كان يدرك ان التفاوض هو طريق النهاية، وأن الكفاح الشعبى ليس له طريق سوى طريق البندقية، لقد رفض الجهاد الأفغانى عشرات المشروعات التفاوضية وعشرات الحلول السياسية والمبادرات ونذكر منها مبادرة نجيب الله (يناير ١٩٨٦).. عرض وقف إطلاق النار (يوليو ١٩٨٧، ويناير ١٩٨٨).. رفض مقررات قمة جنيف (ابريل ١٩٨٨).. رغم قبول كثير من الدول لها مثل باكستان ومصر والسعودية، وأمريكا، والأمم المتحدة، والإتحاد السوفييتى وغيرها.. ثم آخرها جولة الأمين العام للأمم المتحدة بطرس غالى (ابريل ١٩٩٢).. وكلها رفضت من المجاهدين وأصروا على القتال حتى النهاية.. فانتصروا ودخلوا كابول وفرضوا موقفهم ووجودهم على الجميـع.


محاولات التطويق
فى
ربع الساعة الأخيرة

بعد خروج السوفييت من أفغانستان ثم انهيار الشيوعية وتفكك الإتحاد السوفييتى فيما بعد، حدث تقارب كبير بين النظام الشيوعى فى كابول والولايات المتحدة الأمريكية، وقدم نجيب الله نفسه إلى الأمريكيين باعتباره ضمانة فى وجه الأصولية الإسلامية التى تشكل خطراً على أمريكا على حد قوله للصحافة الأمريكية، وبالفعل حدث تعاون معلن وغير معلن بين أمريكا والسلطة الشيوعية فى كابول! ولكن أمريكا عملت على أكثر من مستوى فى هذا الصدد، وجهزت أكثر من خطة بديلة لأنها كانت تدرك أن نظام نجيب فى حكم المنتهى.

تحركت أمريكا للإيقاع بين فصائل المجاهدين، وتحركت إعلامياً لتشويه سمعة المجاهدين بتهمة الاتجار فى المخدرات، وذلك لكى تبرر تدخلها العسكرى بهذه الحجة إذا لزم الأمر.

وتحركت على مستوى الأمم المتحدة ـ وهى قفاز أمريكى بالطبع بعد انفراد أمريكا بالهيمنة الدولية ـ ونشط مبعوثوا الأمم المتحدة لتقديم مشروعات التسوية التى تستهدف منع المجاهدين من الوصول إلى السلطة والاستماتة فى إقامة نظام علمانى فى كابول، وطرح مبعوث الأمم المتحدة* فى ديسمبر ١٩٩١ قائمة طويلة تضم ١٥٠ شخصاً كلهم من السياسيين القدامى وأنصار ظاهر شاه وطرح هذه القائمة كحكومة أو لجنة تتولى الحكم مؤقتاً فى أفغانستان وكان المخطط الأمريكى يقضى بإعادة الملك المخلوع ظاهر شاه إلى حكم أفغانستان على الطريقة

* هو المبعوث الدولى بينون سيفان.

الكمبودية، ولكن وعى المجاهدين وإصرارهم أسقط هذه الخطط، وقـرر المجاهـدون التحـرك بالسـرعة اللازمة للقضاء على هذا المخطط.

ونجح المجاهدون فى تشديد ضغطهم العسكرى على حكومة نجيب الله مما أدى إلى انهيارها وهروب نجيب الله فى ابريل ١٩٩٢ وخافت أمريكا من وصول المجاهدين إلى السلطة، فأسرعت بتحريك الأمم المتحدة من جديد فى محاولة لقطع الطريق على المجاهدين وأسرع الأمين العام للأمم المتحدة بطرس غالى بنفسه وسافر إلى باكستان وطهران وحاول إقامة حكومة علمانية فى باكستان، ولكن المجاهدين استمروا فى ضغطهم العسكرى واقتربوا كثيراً من كابول، أحمد شاه مسعود من الشمال وحكمتيار من الجنوب.

وفى كابول كانت هناك بقايا الميليشيات التابعة للحكومة السابقة وبقايا الجيش المنهار، وكان المجاهدون يدركون أن الإسراع فى دخول كابول سيؤدى إلى وقوع مذبحة، وقرروا محاولة استمالة هذه الميليشيات وبقايا الجيش حتى يكون دخول كابول سهلاً، وقد نجحوا بالفعل فى هذه الخطة، إلا أنها أيضاً كانت خطة تحمل الكثير من المخاطر، لأن سلوك هذه الميليشيات لن يكون منضبطاً بالشكل الكافى وهذا أمر طبيعى بالنظر إلى طبيعة تشكيلها وطبيعة عناصرها.

على كل حال انضم البعض من هذه الميليشيات إلى أحمد شاه مسعود والبعض الآخر إلى حكمتيار، ودخل أحمد شاه مسعود كابول من الشمال، ووصل حكمتيار إلى مشارف كابول من الجنوب وحدثت

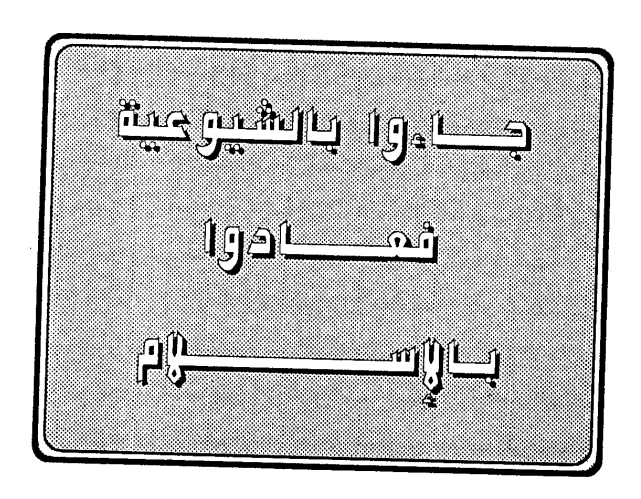
اشتباكات بين هذه الميليشيات التى كانت تتبع الحكومة الشيوعية السابقة مع كل من قوات أحمد شاه مسعود وحكمتيار فهؤلاء الذين انضموا إلى أحمد شاه مسعود من هذه الميليشيات افتعلوا اشتباكات مع قوات حكمتيار، وهؤلاء الذين انضموا إلى قوات حكمتيار افتعلوا اشتباكات مع قوات أحمد شاه مسعود، ويمكننا أن نفهم ما حدث فى إطار أن هذه الميليشيات خططت لجر كل من قوات حكمتيار وأحمد شاه مسعود إلى الصدام بينهما مما يعطى هذه الميليشيات موضع قدم فى السلطة الجديدة، أو أن هناك اختراقات مخابراتية من أمريكا أو غيرها داخل هذه الميليشيات وأن تلك الاختراقات المخابراتية دفعت هذه الميليشيات إلى هذا السلوك بهدف تشويه سمعة المجاهدين على أساس ان انتصار المجاهدين أعطى دفعة معنوية هائلة للإسلام والمسلمين وحركات التحرر فى كل مكان، وكان لابد من تطويق الآثار السياسية والمعنوية لهذا الانتصار عن طريق التلويح والدعاية بأن الإسلاميين يستهدفون السلطة فقط! وأنهم لن يتورعوا عن قتال بعضهم بعضا فى سبيل السلطة. وفى الحقيقة فإن الإعلام الغربى والمحلى الموالى للغرب قد التقط أخبار هذه الاشتباكات بين الميليشيات والمجاهدين وصورها على أنها صدام بين المجاهدين، وقد أحدث هذا الأمر انزعاجاً كبيراً لدى كل المسلمين المخلصين فى كل مكان ووضع الجميع يده على قلبه خوفاً من الفتنة، ثم بدأت دوائر الإعلام الغربى والمحلى الموالى لها فى الحديث عن معتدلين ومتشددين فوصفت أحمد شاه مسعود بالاعتدال

وحكمتيار بالتشدد ، وكان هذا الأمر يستهدف الإيحاء بأن هذا المعتدل مرضي عليه من الغرب مما يفض الحماس الإسلامى له، وهذا المتشدد مرفوض من الغرب لاستفزازه والضغط على أعصابه باتجاه التهور وهكذا ، ولكن الحقيقة انه لا اعتدال ولا تطرف فى المسألة.. وكل من أحمد شاه مسعود وحكمتيار له بلاؤه فى المعركة ومواقفه الإسلامية المعروفـة.

ثم بدأ الحديث عن الصراع القبلى والطائفى والمذهبى على أرض أفغانستان، وهذا كله لسحب الآثار السياسية للانتصار الأفغانى، ولإعداد المسرح لألاعيب الفتنة التى تنوى أمريكا وعملاءها إفتعالها فى أفغانستان بهدف تطويق الإنتصار الإسلامى فيها.

وصحيح ان كل ما حدث لم يكن صراعاً بين المجاهدين، وهذا ما كشفته الصحافة الإسلامية، وكشفه المراسلون المسلمون الملتزمون من كابول نفسها ، وكان لهذا الكشف الفضل في طمأنة قلوب المسلمين فى كل مكان الذين وضعوا أيديهم على قلوبهم خوفاً من الفتنة وإشفاقاً على المجاهدين، ولكن سلسلة المؤامرات على الجهاد الأفغانى لن تنتهى بهذه السهولة، وسوف نشاهد المزيد منها دائماً، ويبقى أن الأمر مرتبط بوعى المجاهدين وتجردهم وسعيهم الدائب نحو الوحدة وارتفاعهم على المصالح الشخصية والفئوية والمذهبية والعرقية.

***


جاءوا بالشيوعية
فعادوا
بالإسلام

من بركات الجهاد الإسلامى فى أفغانستان أنه كسر الطوق الحديدى حول الاتحاد السوفييتى عموماً، والجمهوريات الإسلامية فى الإتحاد السوفييتى السابق خصوصاً.

كان الإتحاد السوفييتى قد نجح فى ضرب طوق حديدى حول الجمهوريات الإسلامية فى محاولة لقطع صلاتها بالعالم الإسلامى، كما نشط فى الدعاية للشيوعية داخل هذه الجمهوريات وهاجم الإسلام بشدة وغيّر مناهج التعليم بهدف ترويج الإلحاد والتشكيك فى الإسلام وكذلك استخدم الصحافة والإذاعة والتليفزيون بهذا الهدف أضف إلى ذلك أنه أغلق المساجد والكتاتيب وصادر المصاحف من أيدى المسلمين فى الإتحاد السوفييتى ولم يتورع عن ارتكاب المذابح بحق الشعوب الإسلامية فى الإتحاد السوفييتى السابق بهدف القضاء على الإسلام تماماً فيها.

وعندما قرر الإتحاد السوفييتى غزو أفغانستان كان يستهدف ضمن ما يستهدف نشر الشيوعية فى أفغانستان والقضاء على الإسلام فيها وذلك بهدف حماية الجمهوريات الإسلامية الخمس فى الإتحاد السوفييتى السابق من تأثير الإسلام القادم عبر الحدود من أفغانستان ـ تبلغ تلك الحدود ٢٣٨٣ كيلومتراً ـ ويعترف بريجنيف بهذا الأمر قائلاً: «إننا لن نسمح بقيام نظام معاد للشيوعية فى أفغانستان التى تلاصق حزامنا الرخو».. ويقصد بالحزام الرخو الجمهوريات الإسلامية الخمس التى كان الاتحاد السوفييتى يحتلها.

ولكن ماذا حدث ؟.. حدث العكس تماماً.

يحكى الأستاذ عصام دراز فى كتابه «القصة الدامية للغزو السوفييتى لأفغانستان» أنه رأى عدداً كبيراً من الترجمة الروسية لمعانى القرآن الكريم فى إحدى دور النشر فى باكستان، وعندما سأل صاحب الدار عن سبب تواجد كل هذه الكميات من المصاحف المترجمة إلى اللغة الروسية؟.. قال له الرجل: «لقد فتحت الأبواب بواسطة الجهاد الأفغانى.. إن غزو روسيا لأفغانستان جاء خدمة كبيرة للدعوة للإسلام.. الآن يا أخى المصحف (المترجم) يباع فى موسكو..». وأضاف الرجل: «لقد وزعنا فى عام واحد أكثر من ثلاثين ألف مصحف داخل الإتحاد السوفييتى.. إن الروس المسلمين يقبلون على شراء المصحف مهما كان ثمنه».. وأضاف الرجل أيضاً: «من كان يصدق ذلك، إن الفضل يرجع للجهاد الأفغانى.. لقد فتح لنا الباب.. والمصاحف تنقل بواسطة المجاهدين الأفغان مثل الذخيرة.. إلى داخل روسيا عبر حدود أفغانستان»..

وينقل الأستاذ عصام دراز عن أحد قادة الجهاد الأفغانى قوله: «لقد أشعلت روسيا النار، وسوف تمسك بثيابها قريبا.. إنهم يحاربوننا الآن بكل عنف وضراوة، ليس فقط خوفاً منا.. ولكن خوفاً من الخطر الكامن داخلهم.. ذلك الشعب المسلم الأسير الذى بدأ يستيقظ على صدى المدافع والصواريخ فى أفغانستان المسلمة».

وبالفعل تحققت نبوءة الرجل، وانتشر الوعى الإسلامى داخل الجمهوريات الإسلامية الخمس فى الإتحاد السوفييتى السابق، لدرجة

انفجار إنتفاضة شعبية عارمة فى ألما آتا عاصمة جمهورية كازاخستان الإسلامية فى شهر ديسمبر ١٩٨٦، وقد اعترفت الصحافة السوفييتية الرسمية بالبعد الإسلامى لهذه الإنتفاضة وإن كانت قد وصفت هذا البعد الإسلامى بالرجعية كعادتها.

* * *

بلغ التأثير الإسلامى للجهاد الأفغانى على الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفييتى مبلغاً كبيراً، لدرجة أن عدداً من المقاتلين الروس الذين ينحدرون من أصل إسلامى والذين جاءوا للقتال فى أفغانستان مع الجيش الروسى، انشقوا على وحداتهم والتحقوا بالجهاد الإسلامى وقاتلوا معه ضد الجيش الروسى، حتى اضطرت القيادة الروسية فى ذلك الوقت إلى سحب هؤلاء الجنود المنتمين إلى أصول إسلامية من أفغانستان، واستبدالهم بآخرين لا ينحدرون من أصل إسلامى.

فى مجلة *(المختار الإسلامى)*، العدد (١٠٧) وتحت عنوان: «حوار مع أسير روسى مسلم».. واسمه قربان على محمد من جمهورية طاجكستان مواليد ١٩٦٦، وأصبح اسمه بعد الإنضمام إلي الجهاد الأفغانى «أسد الله».. يقول الرجل: «بحمد الله ثم بفضل المجاهدين عرفت الكثير من شعائر الدين كالصلاة والصيام وقراءة القرآن والأخلاق الإسلامية، وقد اهتم بى القائد الشهيد صفى الله أفضلى وهيأ لى الظروف لتربيتى وإعدادى»..

وفى كتاب الأستاذ محمد عبدالقدوس «فى قلب أفغانستان» ينقل

الرجل مشاهداته الشخصية فى كيفية تأثير الإسلام على المقاتلين الروس لدرجة أن بعضهم وهم من أصل غير إسلامى يعلنون إسلامهم وينضمون إلى الجهاد الأفغانى ويقاتلون معه، أى أن الأمر لم يقتصر فى تأثيره على الجنود السوفييت من أصل إسلامى بل تعداه إلى الجنود السوفييت من غير ذوى الأصل الإسلامى.. يقول محمد عبدالقدوس: «فى مكان ما بمنطقة جاجى بأفغانستان كانت لى مقابلة مع اثنين من الأسرى الروس ـ يورى ميخائيل ، وقسطنطين ميكتا » كانا جنديين فى الجيش السوفييتى الذى يقاتل فى أفغانستان، أسـرهما المجاهـدون الأفغان منذ ثمانية أشهر.. أسلما . أصبح اسمهما على التوالى عبدالرحمن ومحمد إسلام»..

ويقول محمد عبدالقدوس: «قدم الأسيران نفسيهما لى.. الأول يورى ميخائيل (٢٠ سنة) من منطقة تولا بالإتحاد السوفييتى تبعد عن موسكو حوالى ٢٠٠ كيلومترا، والثانى قسطنطين ميكتا (١٩ سنة) من منطقة جوركى تبعد عن موسكو حوالى ٤٠٠ كيلومترا»..

ولما سألهما محمد عبدالقدوس عن سبب إسلامهما أجاب يورى ميخائيل أو عبدالرحمن قائلاً: «أعجبنى سلوك الأفغان معنا.. كان نموذجاً للسلوك الطيب.. درست دينهم ـ الإسلام ـ اقتنعت به.. وهكذا أصبحت مسلماً».. ثم قرأ الفاتحة أمامى..

وقال قسطنطين ميكتا أو محمد إسلام: «لقد اقتنعت بوجود الله وما أعظم ذلك.. إنه يجعل الإنسان يشعر بالراحة.. كنت من قبل ملحداً

لا أؤمن بشىء، أما الآن فأنا مسلم».. ثم قرأ الفاتحة أمامى بلهجة سليمة تماماً.

وينقل محمد عبدالقدوس قول عبدالرحمن «يورى ميخائيل سابقاً»: «المؤمن الحقيقى قوى لا يخاف إلا من الله فقط.. أما الكافر فيخاف من كل شخص أقوى منه».. وقول محمد إسلام أو قسطنطين ميكتا سابقاً: «المسلم الحقيقى ملتزم بتعاليم دينه.. يبنى سلوكه على أساسه.. أما الكافر فلا يلتزم بشىء».

ويحكى محمد عبدالقدوس عن مفاجأة كبيرة كانت بانتظاره أثناء وجوده مع المجاهدين داخل أفغانستان، لقد شاهد مجاهدين روس يقاتلون إلى جانب المجاهدين الأفغان، وقد قال له الأول ان اسمه «عبدالله» من منطقة القفقاس بجبال الأورال بالإتحاد السوفييتى وقد رفض ذكر اسمه السابق على الإسلام.. وقد أسلم بعد وقوعه فى الأسر منذ سنتين فى منطقة بخرهار فى شرق أفغانستان، وكذلك فعل زميله الثانى «صالح».. ولما اطمأن اليهما المجاهدون الأفغان أطلقوا سراحهما فانضما إلى المجاهدين الأفغان. وقد قال قائد الجبهة محمد صديق شكرى عنهما: «نحن نثق فيهما وفى تصرفاتهما لدرجة أننا سمحنا لهما بحمل المدافع الرشاشة، عبدالله قام بجهد معنا فى الصفوف الأمامية، وساهم فى إبطال ألغام كثيرة تحيط بالقلعة التى نحاصرها بمنطقة جاجى، اشترك مرة فى مطاردة الطائرات المعادية التى كانت تغير على المنطقة، متخصص فى تعليم الأسرى الروس الآخرين الإسلام أما صالح فيخدم مع

المجاهدين فى الصفوف الخلفية ويقوم بدور مشكور».

وعندما سألهما محمد عبدالقدوس عن أسباب قتالهما مع المجاهدين الأفغان قال عبدالله: «نحن نعيش حياة جديدة تماماً، أصبحنا مسلمين والجهاد فرض علينا، وفى كثير من غزوات الرسول (ﷺ)، كان المسلمون يقاتلون أقاربهم الكفار.. رابطة الدين أقوى فى هذه الحالات من أى رابطة»..

أما صالح فقال: «إنه يجب على الإنسان أن يقف إلى جانب أبناء دينه خاصة أنهم مع الحق والعدل، وأنا أرفض ما يفعله الروس بشعب أفغانستان من بطش وتنكيل وإرهاب، وهذا الرفض من الأسباب الأساسية التى جعلتنى أنضم إلى المجاهدين».

دور الجهاد الأفغانى فى انهيار الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفييتى

قد يبدو للوهلة الأولى ، أن إقحام الجهاد الأفغانى فى مسألة انهيار الشيوعية وتفكك الإتحاد السوفييتى، أمر أكثر مما تحتمله المعانى أو نوع من المبالغة فى أشياء لا تحمل هذه المبالغة.

ولكن الحقيقة المجردة، وبدون الخوف من مواجهة هذه الحقيقة مهما كانت كبيرة، أو ممارسة نوع من التواضع فى موضع لا داعى فيه للتواضع إحقاقاً للحق، أن الجهاد الأفغانى كان له الدور الأساسى إن لم نقل الوحيد فى إسقاط الشيوعية عموماً، وانهيار وتفكك الإتحاد السوفييتى خصوصاً.

إن علينا فى البداية أن ندرك مغزى تلك السنوات من ١٩٧٩ وحتى ١٩٩٠ وهى الفترة التى بدأ فيها بريق الشيوعية يخبو وأدت فى النهاية إلى سقوطها وكذا تضعضع أحوال الإتحاد السوفييتى مما أدى إلى تفكك هذا الإتحاد السوفييتى فى النهاية..

فهل هى مصادفة أن تكون هذه السنوات هى نفسها سنوات الجهاد والصمود الأفغانى؟!

إن هذا الصمود الأفغانى قد حقق نتيجتين متلازمتين لا يختلف أحد عليهما.. الأولى: انه منع سيطرة الإتحاد السوفييتى على أفغانستان وبالتالى إمكانية المزيد من التوسع وصولاً إلى المياه الدافئة.. وهو الأمر الذى كان يحقق للإتحاد السوفييتي مكاسب هائلة كانت كافية لحل أزمته الداخلية والخارجية وبالتالى إطالة عمر الشيوعية لسنوات طويلة جداً.

والثانية : أن الصمود الأفغانى المذهل، قد كشف وعرى حقيقة

المبادىء المزعومة للشيوعية وللاتحاد السوفييتى السابق فى دعم حركات التحرر الوطنى ومناهضة الاستعمار وغيرها من المبادىء المزعومة التى كانت ــ بلا شك ــ تساهم مساهمة فعالة فى المعركة السياسية والأيديولوجية المحتدمة فى العالم لصالح الإتحاد السوفييتى والشيوعية.. ولكن بعد إندلاع الجهاد الأفغانى والأداء المتميز الذى أداه هذا الجهاد، اضطر الإتحاد السوفييتى إلى التدخل العسكرى المباشر ضد الشعب الأفغانى مما جعل مصداقية المبادىء السوفييتية المزعومة وكذا الشيوعية فى مهب الريح، الأمر الذى أثر سلباً على المعركة الثقافية والأيديولوجية والسياسية التى كانت تخوضها الشيوعية.

فإذا أضفنا إلى ذلك، أن الجهاد الأفغانى الذى صمد أمام جحافل المؤسسة العسكرية السوفييتية وأسقط هيبتها، ساهم فى تقليص نفوذ هذه المؤسسة داخل الإتحاد السوفييتى نفسه، وقد كانت تلك المؤسسة هى أهم ركائز الحكم الشيوعى، وأهم وسائل إخضاع الجمهوريات السوفييتية غير الروسية.

وبالتالى يمكننا بناء على ذلك أن نؤكد الدور الكبير والمتميز للجهاد الأفغانى فى إنهيار الشيوعية وفى تفكك الإتحاد السوفييتى.

إن الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، قد ضغط طويلاً على الشيوعية وعلى الإتحاد السوفييتى سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وثقافياً، ولكن هذا الضغط لم يحقق أى شىء ملموس فيما قبل ١٩٧٩ ـ ١٩٩٠، بل العكس هو الصحيح بمعنى أن المعركة كانت تبدو

حتى ذلك التاريخ لصالح الشيوعية ولصالح الإتحاد السوفييتى، فما هو التغير الموضوعى الذى قلب كفة الميزان، إنه الجهاد الأفغانى.

على أي حال سنأخذ فى هذا الصدد بشهادتين لرجلين فى موقعين سياسيين وحضاريين مختلفين تماماً.. أحدهما هو الدكتور عبدالقادر طاش فى كتابه «المسلمون فى الإتحاد السوفييتى» والآخر ريتشارد نيكسون الرئيس الأمريكى الأسبق فى كتابه «انتهزوا هذه الفرصة».. يقول الدكتور عبدالقادر طاش فى كتابه المذكور صـ ٧١: «ولكن الأقرب إلى مسلمى الإتحاد السوفييتى كان تأثير الجهاد الأفغانى بسبب القرب المذهبى والمكانى من جهة، وبسبب الإحتكاك المباشر بين الأفغان والسوفييت من جهة أخرى.. ولذلك يمكن القول أن تأثير الجهاد الأفغانى كان بالغاً جداً فى هذا الصدد».

ويقول ريتشارد نيكسون فى كتابه: «انتهزوا هذه الفرصة» صـ ٦١: «إن شجاعة واستبسال المقاومة الأفغانية كانت من أهم الأسباب التى أدت إلى إنهيار الإمبراطورية السوفييتية فى أوروبا الشرقية، فقد رأت هذه الشعوب، عندما فشل الجيش السوفييتى فى الإنتصار على المقاومة الأفغانية أن الفرصة قد سنحت لها».

وقد يقول البعض أن الجهاد الأفغانى قد تلقى دعماً كبيراً من الغرب وأمريكا نكاية فى الشيوعية وفى الاتحاد السوفييتى، ولكن الحقيقة أن هذا غير صحيح باعتراف نيكسون أيضاً فى نفس الكتاب ص ١٩٦: «وعندما قام الجيش الأحمر بغزو افغانستان عام ١٩٧٩ كان رد فعلنا

رمزياً، فقد رفضنا مشاركتهم فى الألعاب الأوليمبية، وأوقفنا صفقة حبوب للإتحاد السوفييتى، وأرسلنا بعض الأسلحة التى عفا عليها الدهر للمقاومة الأفغانية».

وأياً كان الأمر، فإن الدعم الخارجى، لأية حركة كفاح وطنى، أو للمجاهدين الأفغان ما كانت لتجدى شيئاً، لأن العامل الأساسى فى الصمود فى كل مكان وزمان هو الإرادة الذاتية والتفاف الجماهير والصمود فى القتال والصبر على الصعاب، ولعل فشل ثورة المجر ضد الشيوعية سنة ١٩٥٦، وتشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨، برغم أن هاتين الثورتين كانتا تستندان إلى حكومتين تملكان مقدرات هاتين الدولتين، أما المجاهدين الأفغان فكان عليهم أن يواجهوا الجيش السوفييتى بالإضافة إلى نظام حكم عميل يمتلك إمكانيات دولة بما فيها من جيش ومخابرات وشرطة واقتصاد وغيرها.



«دائماً أفكر .. مصانع الخبز ومشروع جنكلك ووحدات بناء المنازل .. تم تشييدها قبل ثورة ابريل ١٩٧٨ .. ثم انفقنا نحن ١١ عاماً فى تدميرها .. نحن فقط دمرنا الأشياء ..» ..

السفير السوفييتى فى كابل «ب.ن باستوفوف»

فى ١٤ يونيو ١٩٩٠ لصحيفة البرافدا .. ونقله راديو موسكو

فى اعتراف لا يخلو من الصراحة، اعترف السفير السوفييتى فى كابل (ب.ن باستوفوف) فى ١٤ يونيو ١٩٩٠ لصحيفة البرافدا ونقله راديو موسكو قائلاً: «دائماً أفكر مصانع الخبز ومشروع جنكلك ووحدات بناء المنازل تم تشييدها كلها قبل ثورة ابريل ١٩٧٨* ثم أنفقنا نحن ١١ عاماً فى تدميرها نحن فقط دمرنا الأشياء».

والجرائم التى ارتكبها الشيوعيون التقدميون وجيشهم السوفييتى فى أفغانستان أكثر من أن تحصى، وقد فحصها تقرير لمعهد الدراسات السياسية فى إسلام أباد ـ باكستان وأعده توفيق غانم.. يقول التقرير:

ـ نزح أكثر من ثلث السكان الأفغان (٣٨.٧٪) إلى خارج أفغانستان، وقتل ١٠٪ منهم نتيجة القصف والدمار**، وإذا أضفنا إلى ذلك المعوقين ومن بقى داخل أفغانستان بلا عمل أو إنتاج مثل النازحين داخلياً وهم يشكلون ما نسبته ١١٪ من السكان ومثل الفلاحين غير المنتجين ومن تحول من السكان إلى مهنة القتال فإن الخسارة فى القوى البشرية تزيد على نصف السكان، خاصة وأن ٤٣٪ من المهاجرين تتراوح أعمارهم بين ١٥ ــ ٤٥ عاماً وهى سن ذروة الإنتاج، وقد تحول معظم من بقى بداخل أفغانستان فى العمر ذاتها إلى صفوف المقاتلين مع أحد أطراف الحرب.

ـ بلغ عدد معوقى الحرب ١.٩٪ من إجمالى السكان أى حوالى

---

* يقصد الإنقلاب الشيوعى فى ابريل ١٩٧٨ فى أفغانستان.

** ١.٦ مليون على أقل تقدير .

٣٠٠ ألف معوق وعدد المصابين ٧,٥٪ أى حوالى ١,٢ مليون معوق وهناك ٧٠٠ ألف أرملة ويتيم حالياً.

ـ أصبح معدل النمو الطبيعى للسكان صفراً لتماثل عدد المواليد مع عدد قتلى الحرب والوفيات.

ـ دمار ٥٥٪ إلى ٧٧٪ من القدرات الإنتاجية الزراعية حيث تهدمت ما نسبته ٦٠٪ من شبكات الرى تقريباً، وتوقفت نصف الأراضى المزروعة عن الزراعة وأصبحت عرضة للتصحر ونقص عدد الماشية إلى النصف تقريباً.

ـ أصاب الدمار ما نسبته ٧٠ ـ ٨٠٪ من شبكة الطرق الرئيسية المرصوفة، و٢٥٪ من شبكة الطرق الفرعية، كما تم تدمير ٣٠٠ قنطرة وجسر و٢٠٪ من الشاحنات.

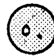
ـ دمار أكثر من ٥٠٪ من خطوط نقل الطاقة وأكثر من ٧٥٪ من خطوط الإتصالات.

ـ دمار ٥٤,٥٪ من القرى تدميراً كاملاً، كما دمرت الحرب حوالى ٥٩٪ من مراكز الصحة الريفية وأصابت حوالى ألفين من المدارس بدمار شديد ومعظمها يحتاج إلى إعادة بناء.

ـ استنزاف المخزون الإحتياطى للغاز، وتقدر الكمية المتبقية منه بحوالى ربع أو خمس الإحتياطى الأصلى.. كما تقدر خسارة أفغانستان بسبب بيعها هذا الغاز بسعر أقل من سعر السوق العالمى للإتحاد السوفييتى بحوالى ١٥,٦ بليون دولار.

إن الوضع فى أفغانستان بسبب تدخل الجيش السوفييتى وبسبب الإنقلاب الشيوعى وصل إلى حد المأساة سواء فى موضوع التهجير، الإبادة الجماعية، تدمير البنية الأساسية، استنزاف الثروات، سياسة الأرض المحروقة، تدمير المدارس والمصحات والطرق والمواصلات.. وغيرها. وهذا الأمر يكشف عن حقيقة هامة وهى أن الشيوعيين أدعياد التقدمية والدفاع عن المستضعفين وغيرها قد كشفوا القناع الحقيقى عن مدى إجرامهم وعنصريتهم وقهرهم ونهبهم فى موضوع أفغانستان فأضافوا دليلاً جديداً على أن كل إفرازات الحضارة الغربية من رأسمالية وشيوعية اشتراكية ونازية وفاشية.. كلها إفرازات بشعة تحمل السمات الأصيلة للحضارة الغربية وهى: العنف، القهر، العنصرية، النهب.. ومن المعروف أن الشيوعية هى إفراز لنفس الأرضية الثقافية للحضارة الغربية.. وكل إفرازاتها قد ثبت اجرامها وبشاعتها بدءاً بالرأسمالية فالنازية فالفاشية فالاشتراكية* فالشيوعية التى انكشف قناعها تماماً فى أفغانستان.

* الحكومة الإشتراكية فى فرنسا هى أكبر من ارتكب الجرائم والمذابح فى حق الشعب الجزائرى إبان الإحتلال الفرنسى للجزائر، وكذلك كان للإشتراكية الدولية دور كبير فى قيام ودعم إسرائيل.



لماذا انتصر الأفغان ؟!
ولماذا تأخر النصر
الفلسطيني حتى الآن ؟!

﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم
ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾

الانتصار الأفغاني يطرح سؤالاً كبيراً ومشروعاً، ألا وهو لماذا انتصر الأفغان، في حين أن الفلسطينيين حتى الآن في حالة هزيمة وتراجع ولو على الأقل على مستوى منظمة التحرير الفلسطينية؟!!.

والسؤال في حد ذاته يحمل في طياته أسباب الانتصار عموماً، وشروطه في المجتمعات الإسلامية خصوصاً.

هل كان التحدي العسكري والسياسي الذي واجهه الأفغان أقل من ذلك التحدي السياسي والعسكري الذي واجهه الفلسطينيون؟

في الحقيقة فإن العكس هو الصحيح، فالمجاهدون الأفغان واجهوا نظام حكم عميل، كان يمتلك أدوات وإمكانيات الدولة الأفغانية من جيش وشرطة وإعلام، واقتصاد، وبالتالي فإن حشد الشعب الأفغاني تجاه هذا النظام عملية صعبة جداً وتحتاج لقدر هائل من المجهود، في حين أن منظمة التحرير الفلسطينية مثلاً تضمن انحياز كل الشعب الفلسطيني داخل وخارج الأرض المحتلة، لأن الجميع ومهما كانت العقائد والدوافع ضد الكيان الصهيوني.

والمجاهدون الأفغان واجهوا نظاماً يتلقى دعماً هائلاً عسكرياً وسياسياً واقتصادياً من الاتحاد السوفييتي ومنظومة الدول الاشتراكية في أيام عزها، بل وحتى دعماً من بعض الحكومات العربية والإسلامية، والكيان الصهيوني يتلقى دعماً هائلاً أيضاً من الغرب وأمريكا ويهود العالم، ولكن حتى هذه المقارنة ليست لصالح الجهاد الأفغاني وفي أحسن الأحوال فالدعم السياسي والاقتصادي والعسكري والإعلامي

الذى تلقاه النظام العميل فى أفغانستان يتعادل مع مثيله الذى يتلقاه الكيان الصهيونى.

المجاهدون الأفغان واجهوا تدخلاً عسكرياً مباشراً من الجيش السوفييتى وهو أكبر الجيوش فى وقتها، ووصل عدد الجنود السوفييت فى أفغانستان إلى ١١٨ ألف جندى عام ١٩٨٧، يستندون إلى حدود برية طويلة بين أفغانستان والاتحاد السوفييتى سابقاً، أى يستندون إلى امتداد استراتيجى وعمق تعبوى مباشر على الأرض وليس من خلال النقل بالطائرات أو السفن .. وهو أمر يجعل المجاهدون الأفغان يواجهون عملياً كل الجيش السوفييتى الهائل الإمكانيات، ولم يحدث حتى الآن على الأقل تدخل عسكرى مباشر أمريكى أو غربى إلى جانب الكيان الصهيونى .

أما على مستوى الدعم الذى تلقاه المجاهدون الأفغان، فقد اقتصر على جهـــود الشعوب الإسلامية وكانت فى معظمها محدودة وفرديـة، ولا يمكن طبعاً مقارنتها بالدعم الذى تلقته منظمة التحرير الفلسطينية من كل الشعوب العربية والإسلامية، بل والحكومات العربية والإسلامية جميعاً الملكية والجمهورية والتقدمية والرجعية على حد سواء، بل ودخلت جيوش العديد من الدول العربية المعارك ضد إسرائيل مثل مصر والأردن وسوريا وجاءت جيوش معاونة من العراق والجزائر والمغرب والكويت والسعودية وباكستان والسودان وهلم جرا...

بل وتلقت منظمة التحرير الفلسطينية دعماً من حركة عدم الانحياز،

الكتلة الشرقية، منظمة المؤتمر الإسلامى، الكتلة الأفرآسيوية.. وغيرها وهو الأمر الذى لم يتحقق للمجاهدين الأفغان.

على مستوى التسليح والإمكانيات، فإن ميزانية المجاهدين الأفغان أو مستوى تسليحهم لا يصل إلى ١٪ من تلك الخاصة بمنظمة التحرير الفلسطينية التى تصل ميزانيتها السنوية إلى أكثر من عشرة مليارات دولار، ناهيك عن إمكانيات دول المواجهة مصر والأردن وسوريا وإمكانيات دول العمق وهى كل الدول العربية وناهيك عن المبالغ التى أنفقتها المنظمة أو تلك الدول على التسليح وهى مئات المليارات من الدولارات، وكانت وبعضها مازال يمتلك أسلحة متقدمة من طائرات وصواريخ ودبابات وحرب اليكترونية... الخ.. الخ.. بعضها أضاعه فى المغامرات والبعض الآخر مكدس والبعض الثالث يستخدم فى قمع الشعوب فقط.

إذن لماذا فشل العرب عموماً ولماذا انتصر الأفغان؟.. الأمر لا يرجع إلا لسبب واحد، هو إسلامية الجهاد الأفغانى، وغياب تلك الإسلامية عن منظمة التحرير الفلسطينية وعن الأنظمة العربية وخاصة فى دول المواجهة مع الكيان الصهيونى، إسلامية الجهاد الأفغانى هى التى حققت مدد الله تعالى، ثم حققت أكبر قدر من التعبئة للشعب الأفغانى، ثم حققت روح الاستشهاد لدى المقاتلين وخلقت الصمود ثم الانتصار، وغياب الإسلامية عن منظمة التحرير الفلسطينية وكذا الأنظمة العربية خاصة فى دول المواجهة هو الذى أدى إلى سلسلة من الأخطاء والتقصير

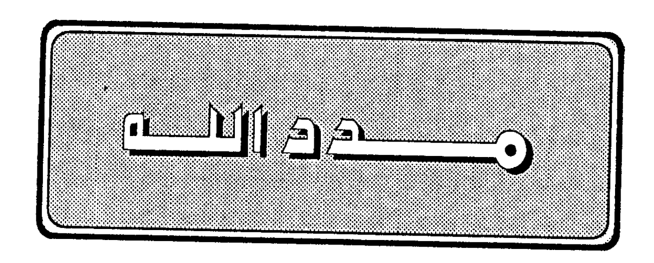
والإضطراب على المستوى السياسى والعسكرى والتعبوى فى مواجهة الكيان الصهيونى.. وقد يبدو أننا نحمل المصطلح أكثر مما يحتمل، ولكن الحقيقة العارية، والتحليل المنطقى، والمقدمات الصحيحة، والنتائج المتوقعة، والاستقراء العلمى كلها تقول إننا أمة لا تتحرك إلا من خلال الإسلام، لأن أي أمة لا تتحرك إلا من خلال وجدانها، وأن الإسلامية شرط ملازم لكل عملية تستهدف النجاح صغيرة كانت أم كبيرة، وافتقاد هذه السمة يؤدى إلى افتقاد الشرط الموضوعى الأول للنجاح.

* * *

وفى الحقيقة فإن نظرة على أحوال العرب والأفغان تعطينا المعنى المباشر لقوله تعالى: **﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾**.. فقد تولى العرب عن الطريق الصحيح، وأهدروا إمكانياتهم المادية والبشرية فى محاربة دين الله أو محاربة بعضهم بعضاً وبالتالى لم يعودوا يستحقون حمل أمانة العالمية الإسلامية. ويبدو أن تلك الأمانة تنتقل الآن إلى قوم آخرين غير العرب ونعنى بهم مسلمى وسط آسيا فها هى الجمهوريات الإسلامية فى الإتحاد السوفييتى السابق تنال استقلالها وتسير فى طريق الإسلام والوحدة، ففى هذه الأيام مثلاً نجحت الأحزاب الإسلامية فى جمهورية طاجكستان فى الإطاحة بالنظام السابق فيها وهو نظام كان يعلن رفضه للإسلامية بهدف الحصول على دعم الغرب، وهناك الانتصار الإسلامى فى أفغانستان، بالإضافة إلى ملامح الوحدة الاقتصادية بين العديد من

الدول الإسلامية فى تلك المنطقة: (إيران ـ أندونيسيا ـ باكستان ـ تركيا ـ الجمهوريات الإسلامية المستقلة حديثا عن الاتحاد السوفييتى).. وآخر أشكال هذا التعاون هو اجتماع القمة بين رؤساء هذه الدول الثمانى فى عشق أباد فى شهر مايو ١٩٩٢ وقد استهدف هذا الاجتماع تحقيق تعاون اقتصادى وصناعى وتجارى وإنشاء طرق ومواصلات وإعادة فتح طريق الحرير التاريخى، الذى كان يربط بين آسيا الوسطى والشرق الأقصى وأوروبا أيام مجد الحضارة الإسلامية، ولعل الرئيس إسلام كريموف رئيس أوزبكستان قد عبر عن الآمال المعلقة، على هذا الأمر بقوله: «إن هناك اقتناعاً بأن الوقت قد حان لأن توحد دول آسيا الوسطى قواها وجهودها وأن تقيم قاعدة صناعيــة قوية لمعالجة المواد الخــام التى تنتجهـــا هذه الدول وتصنعها بنفسها بالوسائل التكنولوجية الحديثة». وبالطبع فإن هذه الكتلة الإسلامية الكبيرة التى تضم عدداً هائلاً من المسلمين وتضم أكبر الموارد فى العالم الإسلامى سيكون لها تأثيرها المباشر على المسلمين فى الهند وبنجلاديش وكشمير والأقليات الإسلامية فى الصين والفلبين وبورما وتايلاند وغيرها، وكذلك على العرب المسلمين فى آسيا، ومن المأمول بالنظر إلى هذا كله أن تظهر العالمية الإسلامية الثانية من مسلمى آسيا الوسطى فيكونون هم المقصودون بالآية الكريمة: **﴿يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾**. وربما يأتى هؤلاء ليحرروا القدس ويزيلوا إسرائيل ما دام العرب متقاعسين عن هذا الواجب !!





﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين، وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾

لعل من أهم ملامح ومميزات الجهاد الأفغاني، تواتر الروايات والمشاهدات عن آيات الرحمن في جهاد الأفغان.. وعن مدد الله تعالى الذي لم ينقطع لهؤلاء المجاهدين، وملحمة الجهاد الأفغاني برمتها تشكل آية ضخمة.. لأن هؤلاء الذين لم يكونوا يمتلكون إلا إيمانهم وقليلا من السلاح الخفيف ما كان لهم أن ينتصروا على أكبر جيوش العالم عدداً وعدة وهو الجيش السوفييتي بدون مدد الله تعالى.

ومدد الله تعالى لا يأتي للقاعدين أو الكسالى أو المتراخين، ولكنه يأتي للمؤمنين المجاهدين الذين يبذلون من الجهد أقصاه ومن العمل آخر مداه.. ومدد الله تعالى حقيقة إسلامية لا ينكرها إلا جاحد، وهي حقيقة تستند إلى صحيح القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وإجماع العلماء، وقد جاء مدد الله تعالى للمسلمين الأوائل في غزوة بدر وتخلف في غزوة «أحد» ثم عاد ليظهر في غزوة الخندق، جاء في الأولى مباشرة عن طريق الملائكة المردفين وجاء في الثالثة بطريقة غير مباشرة، عن طريق الرياح التي اقتلعت خيام الأحزاب وألقت بهم في الصحراء، جاء في الأولى والثالثة لأن المسلمين فيهما بذلوا غاية الجهد في القتال أو التدبير أو استخدام المكر والحيلة، وتخلف في الثانية لأن بعض الصحابة رضوان الله عليهم لم ينفذ خطة رسول الله (ﷺ) وأوامره.

مدد الله تعالى يأتي ولا يتخلف وهذه حقيقة هامة في وجدان المسلم تدفعه إلى الثقة بالنفس وإلى الإحساس بالتفوق بل وتحقق له من الناحية العملية فوائد جمة.. فإذا كان المسلم يعرف أنه يستند في قوته

إلى صاحب القوة، إلى القهار الجبار فإن ذلك يجعله يخوض المصاعب، ويجعله قادراً على اجتياز المستحيل، فأى قوة وأى مستحيل لا تقاس بجانب قوة الله وقدرته، ولعل تلك الحقيقة الهامة بما لها من آثار نفسية وعملية هامة دفعت الاستعمار دائماً ودفعت دعاة المدرسة الاستعمارية دائماً إلى محاولة نزع تلك الحقيقة من وجدان أمتنا وإلقاء ظلال من الشك حولها ومحاولة تطويق آثارها، وذلك لكى يسهل على الاستعمار ترويض أمتنا والتحكم فيها ونزع كل ما من شأنه زيادة قدرتهم على المواجهة والصمود.

إن معنى الإيمان بمدد الله تعالى، وقدرة الجهاد الأفغانى بفضل الإيمان والمدد على الصمود بل هزيمة أكبر الجيوش وهو الجيش السوفييتى أن هناك أملاً وإمكانية بفضل نفس الشىء فى الصمود وهزيمة أى قوة أخرى ولتكن أمريكا مثلاً، ومن أسقط الشيوعية بفضل مدد الله تعالى قادر على إسقاط أمريكا والغرب بإذن الله، ولهذا السبب فإن حالة من العصبية والتوتر تصيب أبناء المدرسة الاستعمارية عند الحديث عن مدد الله تعالى، ولهذا السبب أيضاً فإن محاولات التشكيك فى هذا الأمر قائمة على قدم وساق فى كل الدوائر الإعلامية الاستعمارية خارجياً ومحلياً.

وينبغي فى هذا الصدد أن نذكر أن هناك شرطين لوصول مدد الله تعالى أولهما: هو طاعة الله تعالى وثانيهما: هو بذل كل الجهد والطاقة، ولا شك أن هذين الشرطين كانا متوافرين فى الجهاد الأفغانى

بصورة واضحة.

* * *

والذين يحاولون إلقاء الشك حول قضية مدد الله تعالى فى الجهاد الأفغانى بهدف قطع آثارها النفسية المحتملة على مجمل الجهاد الإسلامى ضد الاستكبار الأمريكى والغربى والإسرائيلى، ينطلقون فى حججهم الواهية من أن الحديث عن مدد الله تعالى أو آيات الرحمن فى جهاد الأفغان هو نوع من الحديث عن خوارق لا تتفق مع منطق العلم، ومن أن هذه الأمور تقود إلى التفكير الخرافى وسيادة روح التواكل والعجز.. وفى الحقيقة فإن هذه الحجج تافهة بل ومفتعلة، فمن ناحية التفكير العلمى والمنطقى المزعوم، فإن ظاهرة ما إذا رآها الآلاف بل عشرات الآلاف وتواترت بشأنها الروايات، فليس من العلمية فى شىء إنكارها، ولكن كان عليهم تصديق الرواية ما دامت متواترة، ويمكن بعد ذلك البحث فى تفسيرها بأى منطق يريدون ذلك التفسير.

إننا كمسلمين نؤمن، انطلاقاً من الآيات القرآنية الكريمة، والسنة النبوية المطهرة بأن مدد الله تعالى يأتى دائماً للمجاهدين، وهذا الأمر فى وجداننا وعقيدتنا أرسخ وأثبت من كل منطق المشككين ومنهجهم الذى يدعون علميته رغم أنه لا علمى ولا موضوعى.

ومن ناحية أخرى فإن الحديث عن أن الإيمان بالمدد يقود إلى التفكير الخرافى وسيادة روح التواكل والعجز هو حديث مغلوط، فمن المعروف أن الإسلام يحض على طلب العلم ويجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة،

كما أن المسلم يعرف أن مدد الله تعالى لا يأتى إلا بعد أن يبذل الإنسان الجهد كل الجهد والطاقة كل الطاقة، الجهد العقلى والبدنى والنفسى.

إن إيمان المسلم بأن مدد الله معه لا يدفعه إلى العجز والتواكل بل على العكس تماماً يدفعه إلى الإصرار والعمل برغم كل المصاعب لأنه يعرف أنه مهما كانت المصاعب أمامه فإن عليه أن يحاول معها وأن يبذل كل جهده وأن يستنفد كل طاقته واثقاً بمدد الله تعالى الذى سيجعله يتغلب عليها حتى ولو كان كل جهده وكل طاقته من الناحية الحسابية البحتة غير قادرة على تجاوز هذه المصاعب فيصر دائماً على الصمود والمواجهة حتى لو كان ميزان القوى مختلاً لصالح الأعداء وهذه قمة الإيجابية، بل هذا هو الذى يصنع التاريخ ويحول مسار الأحداث الكبرى فيه، ولولا هذه الروح لما أمكن انتزاع حق من غاصب مستكبر قوى يملك أدوات القوة ووسائلها.

إن الإيمان بمدد الله تعالى لا يدفع إلى التواكل والعجز، بل عدم الإيمان بهذا المدد هو الذى يدفع إلى القعود والعجز.

والجهاد الأفغانى، كان نموذجاً متكاملاً لهذه المعانى، فكل الحسابات كانت تقول بأن أحداً لن يستطيع الوقوف فى وجه كل هذه الجيوش الجرارة، أمام أكبر قوة عسكرية فى وقتها، وأنه لولا الإيمان بمدد الله تعالى لسقط الشعب الأفغانى فى العجز وانتهى الأمر.

يقول الشهيد الدكتو عبدالله عزام فى كتابه «عبر وبصائر للجهاد فى العصر الحاضر»: «حدثنا سيد عمر أمير معسكر جاجى، وكذلك موسى

خان القائد العسكرى، ووكيل إخلاص قائد إحدى الجبهات أن أحد الذين فروا من جيش الحكومة الشيوعية، وانضم إلى الجهاد الأفغانى حكى لهم ما يلى: «كانت دبابات الروس متجمعة فى أحد المراكز «مركز قرار غا» فاقترب منها رجل شديد بياض الثياب وهو يحمل (آر.بى.جى) وأحرق أربعة دبابات ثم مضى بهدوء واطمئنان رغم إطلاق الرصاص عليه من الروس بغزارة دون أن يضره شىء، ثم رجع بعد ذلك الرجل ذو الثياب البيضاء بعد ساعتين ثم أحرق دبابتين ثم دخل وبيده سكين إلى المكان الذى يتجمع فيه الروس وذبح اثنين منهم وحمل رأسيهما بيده ثم مضى وعليه السكينة والوفاء».

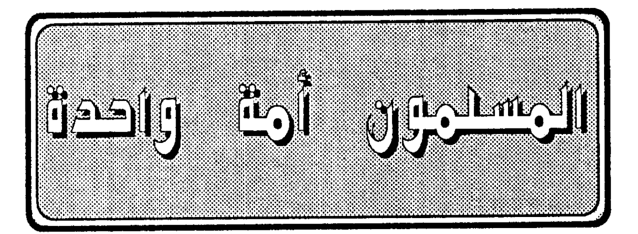
ويقول الدكتور عبدالله عزام: «حدثنى جمال ناصر قائد فى منطقة آجو بدخشان قال كنا متجهين فى قافلة نحو بدخشان وفى طريقنا إلى بدخشان بينما كنا نمر فى بغلان فى دارى وليان قابلنا كمين روسى وكان عددهم ضخماً جداً وبدأت الطائرات تقصفنا من فوقنا وصرنا نقاوم المشاه الروس وطائراتهم واستمرت المعركة إثنا عشر يوماً فجاءنا رسول من الروس قال نحن نفتح لكم الطريق بشرط أن تسلمونا الثلاثين الذين أسرتموهم فقلنا إننا لم نأسر أحداً ولكن الذى حدث هو أن السماء أمطرت مطراً غزيراً وسال الوادى واحتمل السيل منهم ثلاثين روسياً، وقال رسول الرسول للمجاهدين: لقد قتل من الروس خمسمائة وأسقطت طائرتان والروس يقولون المجاهدين ليسوا بشراً ولكنهم من الجنة.

ويقول الدكتور عزام أيضاً: «حدثنى محمد نعيم أحد القادة الذين

كانوا يعملون تحت قيادة الشهيد «مياجل» قال: فرح الشيوعيون كثيراً بمقتل «مياجل» لأنه كان أحد الذين أذاقوا الروس والشيوعيين ألواناً من المقاومة والخسائر الهائلة، وأعلن الشيوعيون انهم سيطوفون بجثته فى سائر بلاد محافظة بغلان، ووضعوا على جثته حراساً فكان الشهيد كثيراً يصيح وهو مقتول: «أعطونى سلاحى سأقتلهم» .. ثم انضم هذا الحرس للمجاهدين نظراً لهذه الكرامة، وأقبل أحد الشيوعيين الغلاة فى المنطقة ليشفى غليله من الشهيد وأراد أن يركله بقدمه فشلت قدمه وعرف هذا فى المنطقة كلها ورأى الشيوعيون هذه الكرامات من جثة الشهيد «مياجل».. فلم يجرؤا على الاقتراب من جثته وجاءوا بثلاثة أكفان وأعطوها لعلماء المنطقة وقالوا كفنوه بها ثم قالوا: لن تهزموا ما دام فيكم أمثال هؤلاء.. ودفن الشهيد «مياجل» وأصبح النور يخرج من قبره وأصبحت صيحات **(الله أكبر)** يرددها ويردد خلفه حشد كبير لا يسمع إلا صوتهم دون أن ترى أشباحهم، وحزن أهله فى بيشاور حيث كانوا مهاجرين حزناً شديداً وخاصة زوجته واخوانه وقام أخوه فى الليل يدعوا الله أن يريهم آية تظهر شهادته وتخفف مصابهم وإذا بباقة من الزهور تسقط من السقف ذات رائحة عطرية نفاذة.. فأيقظ أخواته ليريهن الآية الربانية، فأرادوا أن يوقظوا محمد ياسر (عديله) ـ زوج أخت زوجته ـ ولكنهم أخيراً قالوا نضع باقة الزهور فى داخل المصحف وبعد الفجر نريه هذه الكرامة، وفى الصباح فتحوا المصحف فلم يجدوا شيئاً..

وهذه القصة الأخـيرة حدثنيها ـ والكلام ما زال للدكتور عزام ـ محمد ياسر رئيس اللجنة السياسية فى الاتحاد الإسلامى لأفغانستان*.

* وقد أورد الدكتور عبدالله عزام عشرات الكرامات التى حدثت أثناء الجهاد الأفغانى فى كتابيه : «آيات الرحمن فى جهاد الأفغان» و«عبر وبصائر للجهاد فى العصر الحاضر».



«مثل المسلمين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم
كمثـــل الجسد الواحد إذا اشتكـى منه عضو تداعى
له سائر الأعضاء بالسهر والحمـى »

(حديث شريف)



أعادت الملحمة الأفغانية تفجير ينبوع الوحدة الإسلامية بين المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها، تلك الوحدة التي تعرضت لمؤامرات طويلة، انتهت بتمزيق العالم الإسلامي إلى دويلات التجزئة ولكن هذه المؤامرات فشلت في القضاء على مشاعر الوحدة داخل وجدان المسلمين، ذلك أن الوحدة الإسلامية لم ولن تغيب إن شاء الله، فإذا غابت على مستوى الحكومات والدول فإنها لن تغيب على مستوى الشعوب والأفراد، لأنها جزء من العقيدة وجزء من الوجدان، وستظل دائماً أبداً إن شاء الله أملاً يرتجى وهدفاً يصبوا إليه كل مسلم.

والوحدة الإسلامية تجلت في أعظم صورها في الجهاد الأفغاني فحينما يسارع المسلم من مصر وفلسطين وسوريا والسعودية وليبيا والجزائر والهند والصين وتركيا وإيران ونيجيريا والسودان وباكستان... الخ.. للمشاركة في الجهاد الأفغاني سواء عن طريق القتال بالسلاح أو تجهيز المقاتلين أو كفالة الأيتام أو تقديم الدعم المادي أو الإعلامي أو حتى مجرد التعاطف مع القضية فإن معنى ذلك أن كل هؤلاء قد تجاوزوا الإقليمية الضيقة، والقومية النتنة باتجاه انتماء إسلامي واسع يضع العربي بجوار التركي بجوار الأفغاني في خندق الجهاد والاستشهاد أو المشاركة في تحمل بعض الأعباء، وهذه المشاركة تحمل في طياتها انبعاثاً واسعاً من خلال الدم والعرق والدموع لإحساس شعبي إسلامي جارف بالوحدة سيكون له أكبر الأثر في تحقيق وحدة المسلمين إن شاء الله، لأنها تفجرت على أرض الدم والاستشهاد.

ولا شك أن مشاركة المسلمين فى كل مكان لإخوانهم الأفغان فى جهادهم وصبرهم قد أفاد القضية الأفغانية فائدة ضخمة على كل مستوى، على مستوى الإمداد بالمقاتلين، وبالأطباء، والإمداد بالتموين، بحيث أصبح العالم الإسلامى عمقاً استراتيجياً للجهاد الأفغانى وأفاد أيضاً هؤلاء المسلمين الذين شاركوا شعوبهم من خلال الحصول على خبرة الوعى والقتال على الأرض ومن خلال الإحساس بوحدة قضايا المسلمين، ولعل خوف بعض الحكومات من عودة هؤلاء الذين قاتلوا أو ساندوا الجهاد الأفغانى إلى بلادهم بعد الانتصار الأفغانى يؤكد مدى الإستفادة والخبرة التى حققها هؤلاء لأنفسهم وللحركة الإسلامية وللشعوب الإسلامية بأسرها.

دخل الجهاد الأفغانى كقضية إسلامية كل بيت مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها، ولم يتخلف شعب مسلم واحد ولا جماعة إسلامية واحدة عن تقديم الدعم المادى والمعنوى للجهاد الأفغانى، وجدنا شعب باكستان يستضيف أربعة ملايين من المهاجرين الأفغان ويقاسمهم لقمة عيشه فى سعادة، ويقدم لهم كل الدعم المادى والمعنوى والتعبوى، وكذلك بالنسبة لإيران، والأمر ذاته فى كل مكان فالمصريون بالآلاف مع الأفغان إما مقاتلين أو أطباء وصيادلة وممرضين وإعلاميين، وإما يدفعون ما تيسر لهم كل على حسب قدرته بعضهم تبرع بملايين الدولارات والآخر تبرع بقروش أو جنيهات وهى كل ما كان معه، الجزائريون بالآلاف أيضاً لدرجة أن المجاهدين الجزائريين فى أفغانستان

أصبحوا ظاهرة فى المجتمع الجزائرى أطلق عليهم الأفغان وشكلوا فيما بعد تحدياً كبيراً للنظام الديكتاتورى بقيادة محمد بوضياف، والأمر ذاته على مستوى السودان، ليبيا، السعودية، نيجيريا، السنغال، جنوب افريقيا... الخ.

أنظر مثلاً إلى الشهيد الدكتور عبدالله عزام، وهو فلسطينى مجاهد، سبق أن شارك فى الجهاد ضد اليهود على أرض فلسطين، أدرك وحدة القضية فسافر إلى أفغانستان وشارك فى الجهاد بمشاركة فعالة على أكثر من مستوى واستشهد على أرض أفغانستان كشاهد وشهيد على الوحدة الإسلامية وما هو إلا نموذجاً لآلاف الفلسطينيين والأردنيين والسوريين واللبنانيين الذين فعلوا الشىء نفسه.

وهذا الشاب السعودى الثرى، ويطلق عليه اسم أبوعبدالله ترك أسرته صاحبة الجاه، وترك حياته العريضة وحمل كل ما يملك وذهب إلى أفغانستان، وأنشأ بماله الخاص موقعاً عسكرياً محصناً داخل أفغانستان وجهزه على أحدث الأسس العسكرية، وشق الأنفاق فى باطن الأرض واستضاف المتطوعين من غير الأفغان، خاصة العرب وأطلق على المعسكر اسم «مأسدة الأنصار»، وخاض هذا الموقع العديد من المعارك العنيفة والظافرة وصمد صموداً مذهلاً أمام الهجمات السوفييتية المتكررة بالطائرات والمدفعية والدبابات وقوات الكوماندوز، وفى إحدى المعارك التى خاضها المجاهدون فى مأسدة الأنصار وكلهم من غير الأفغان سقط سبعون شهيداً و٢٠٠ جريحا، واستطاعوا أن يكبدوا

العدو السوفييتي أكثر من ٢٢ طائرة نفاثة وعمودية، وحرق ما بين ٨ ـ ١٢ مخزن ذخيرة، وقتل وجرح ١٥٠٠ شخص، وأسر عشرة أشخاص، واغتنام ١٠٠ قطعة سلاح، واصابة وتدمير ٢٥٠ دبابة وعربة مدرعة*.

وقد علق الأستاذ عبدرب الرسول سياف على هذه المعركة قائلاً:

«إن الاخوة العرب فى مأسدة الأنصار قد أثبتوا بسالة كانت محل إعجاب واندهاش المجاهدين المتمرسين».

وكان للمصريين دور متميز فى دعم الجهاد الأفغانى، فالشهيد كمال السنانيرى قد لعب دوراً كبيراً فى دعم الجهاد الأفغانى وتوحيد صفوف المجاهدين، والمرحوم الأستاذ عمر التلمسانى لعب دوراً ضخماً من خلال قيادته لجماعة الإخوان المسلمين فى دعم الجهاد الأفغانى بالمتطوعين من جماعة الإخوان أو الدعم المالى الذى وصل إلى مئات الملايين من الدولارات، وكذلك بإنشاء عدد كبير من المدارس والمعاهد التعليمية وإرسال المدرسين لتعليم أبناء المجاهدين والمهاجرين، بل ووصل الأمر إلى حد إنشاء جامعة كاملة هى جامعة «الدعوة والجهاد» وكان للأستاذ التلمسانى دور كبير فى ظهور هذه الجامعة واستمرارها**.

أما الجمعية الطبية الإسلامية التى يرأسها الدكتور أحمد الملط، وكذلك نقابة الأطباء المصريين، فقد ساهما أبلغ مساهمة فى إمداد

---

* وقعت هذه المعركة التى تسمى معركة «مأسدة الأنصار» فى شهر يونيو ١٩٨٧.. راجع عصام دراز «القصة الدرامية للغزو السوفييتى لأفغانستان ـ دار الاعتصام.

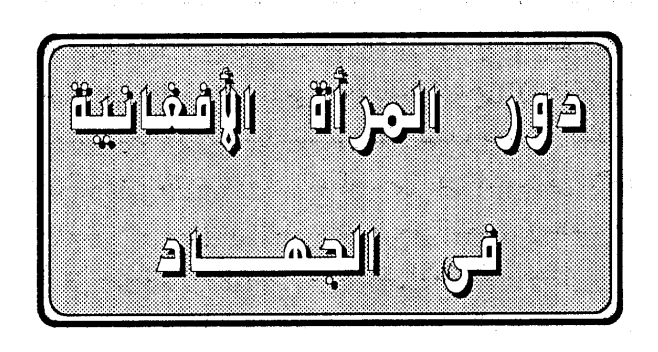
** افتتحت هذه الجامعة سنة ١٩٨٥م.

المجاهدين بالكوادر الطبية اللازمة وكذلك المعونات الدوائية والصحية بل وكان لهذه الجمعية دور كبير فى التصدى للمؤسسات التبشيرية المشبوهة التى ذهبت إلى أفغانستان لاستغلال حاجة الناس إلى العلاج والرعاية فى دعوتهم إلى النصرانية.

* * *

إن أحداً فى العالم الإسلامى لم يتخلف عن دعم المجاهدين الأفغان.. فحتى الأطفال، كانت لهم مساهمتهم لدرجة أن ظهرت فكرة تصميم صندوق صغير لجمع المال «حصالة» وبيعها للأطفال ليقوموا بدورهم بوضع نقودهم فيها وإرسالها إلى أبناء الشهداء والمهاجرين والمجاهدين الأفغان، وقد نجحت هذه الفكرة نجاحاً هائلاً..

وكذلك ظهرت فكرة كفالة اليتيم الأفغانى وقد ساهم فيها أهل الخليج بصورة خاصة مساهمة كبيرة.. وكذلك فكرة تجهيز الفاراى أى التبرع بالمال اللازم لتجهيز أحد المقاتلين بما يلزم للقتال.. وفقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من جهز غازياً فقد غزا».


دور المرأة الأفغانية
فى الجهاد

من حيث العموم، فإن المرأة المسلمة تمثل حلقة هامة فى البناء السياسى والاجتماعى الإسلامى، والمرأة ليست كائنا مقدسا، ولا هى أيضاً كائنا ناقصا بل هى كائنا مكلفا ومتميزا وعليها أن تؤدى دورها فى الحركة الإسلامية المعاصرة، وفى كفاح أمتنا، نحن الآن فى حالة حرب متكافئة وبالتالى تحتاج إلى جهاد الرجل والمرأة بل والطفل فى الكفاح ضد أعداء أمتنا، وفى حالة الخطر على أراضى المسلمين تخرج المرأة للجهاد حتى بدون إذن زوجها، ولا شك أن جميع أراضى المسلمين بل ومستقبلهم كله مهدد الآن، إذن فعلى المرأة أن تشارك فى النضال اليومى من أجل الإسلام، وفى الجهاد العسكرى أيضاً عليها أن تشارك فى كل شىء بدون حساسية، ولدينا عدد من التجارب فى هذا الصدد، مثل تجربة المرأة السودانية فى الجبهة القومية الإسلامية فى السودان وتجربة كفاح المرأة الجزائرية مثل فضيلة سعدان، «أم محمد»، زوجة الملازم «س الأخضر»، ولالا فاطمة ،غيرهن.. بل إن لالا فاطمة مثلاً قادت إحدى حركات المقاومة المسلحة فى الجزائر فى بواكيرها الأولى ضد الاحتلال الفرنسى، وهناك تجربة المرأة الإيرانية التى شاركت فى الكفاح ضد الشاة، وفى مصر مثلاً هناك تجربة أم الشهيد خالد الاسلامبولى، تلك المرأة التى استطاعت بما امتلكته من روح الانتصار أن تحقق أكبر استفادة واستثمار سياسى لحادث المنصة لصالح الحركة الإسلامية فى مصر وخارجها، لقد كان الجو الذى أعقب الحادث جواً صعباً، فقد بدأت ردود الفعل المستنكرة للحادث تتوالى من جميع الفصائل السياسية

الأمر الذى كان يمكن له أن يخنق الآثار السياسية الإيجابية لحادث المنصة، ولكن ظهور أم خالد فى الصورة قلب الأمر رأساً على عقب فقد أعلنت بشجاعة افتقدها بعض الرجال، انها فخورة بخالد ورفاقه وأنها سعيدة بما فعله وأن خالداً كان شجاعاً وكان ابناً عطوفاً وباراً بها وليس كما يريد الإعلام الحكومى تصويره على أنه متوحش وعاق لأهله.. وأنها مستعدة لتحمل كافة المشقات من أجل ابنها، بل انها قامت بتشجيع أهالى المحبوسين على ذمة قضية المنصة على السلوك ذاته، وهكذا منعت عملية الحصار حول العناصر التى نفذت حادث المنصة، ذلك الحصار الذى استهدف استدراج ذويهم إلى إدانة العمل واتهام العناصر المنفذة له بالوحشية أو التطرف وأن أهلهم يتبرأون مما فعلوه، وكان لهذا الموقف أثره فى تماسك تلك العناصر أثناء المحاكمة وداخل السجن، فأعلنوا فخرهم بما عملوه ، وأنه كان عملاً وطنياً وإسلامياً وأنهم غير نادمين عليه، وحتى بعد إعدام خالد الإسلامبولى، قامت أم خالد بتوزيع اللحوم على المساجين بل وجنود السجن كنوع من الفخر باستشهاد خالد، وأنها تحتسبه عند الله تعالى وكل هذا أدى أيضاً إلى عدم خنق الآثار السياسية الإيجابية لحادث المنصة فى مصر وخارجها، ويرجع ذلك فى معظمه إلى امرأة عظيمة هى أم خالد الاسلامبولى.

ولا شك ان تجربة المرأة الأفغانية جاءت لتكون حلقة أخرى فى هذا الرصيد الذى أسهمت به المرأة المسلمة فى التاريخ المعاصر، ويرجع كثير من الفضل فى انبعاث الجهاد وصمود المجاهدين الأفغان إلى المرأة

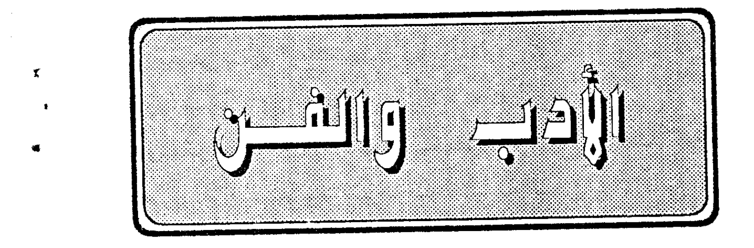
الأفغانية كزوجة وكأم وكأخت وكإنسان مقاتل أيضاً من خلال التمريض أو المشاركة فى عمليات الإمداد والتموين أو حتى المشاركة بالسلاح ذاته.

ويقول شاهد عيان سافر إلى أفغانستان وشارك فى القتال بجانب المجاهدين وهو الأستاذ محمد على دراز وهو ضابط سابق بالجيش المصرى، وذلك فى حوار مع مجلة **«هاجر»** أجرته الصحفية وفاء سعداوى، يقول محمد دراز: «المجتمع الأفغانى متماسك ومتمسك بالإسلام بشدة، وهذا بالتالى ينعكس على المرأة فالمرأة شديدة التمسك بالإسلام.. ولما بدأ الجهاد الأفغانى كانت المرأة الأفغانية تدفع الرجال إلى الجهاد، وأى امرأة يقعد زوجها عن الجهاد تهنيه وتعيره بأن غيره من الرجال فى ساحة الجهاد، وكن يساعدن المجاهدين فيقمن بإمدادهم بالمواد التموينية والإمداد العسكرى لأن العنصر الغالب فى القرية النساء حيث الرجال فى الحرب كما أن الرقابة عليهن أخف... إلى جانب إخفاء المجاهدين فى حالة الهجوم، أيضاً يقمن بخدمة المجاهدين العرب وغسل ملابسهم، والجانب الآخر من جهاد المرأة الأفغانية يتمثل فى الهجرة، لولا الهجرة ما كان الجهاد بهذه الصورة، هاجروا للمناطق الحدودية وأقاموا مخيمات، فقد بدأت روسيا منذ العام الرابع للحرب تنتهج سياسة الأرض المحروقة وهذا يعنى ضرب مواقع المجاهدين وتدميرها عن آخرها فقسم أفغانستان واختار الأقاليم التى ينتشر فيها الجهاد وبدأ فى قصفها قصفاً شاملاً، وأباد ما عليها من زرع وحيوان ومبان وطرق مواصلات

وسمم مصادر المياه، وبالتالى كيف تعيش عائلات فى هذه الأماكن، الإحصائيات المتاحة تقول إن نسبة المهاجرين من النساء والأطفال كانت ٧٠٪ من النسبة الإجمالية للمهاجرين، والهجرة فى حد ذاتها جهاد، أيضاً الحياة فى المخيمات جهاد، فالخيمة التى تتسع لـ ٢ أو ٣ يعيش فيها ١٠، أو ١٢ فى ظروف صعبة وبرد قارس فى الشتاء.

ويضيف الأستاذ دراز أن أكبر مظاهرة قامت بعد الاحتلال السوفييتى بشهر قامت بها طالبات المدارس ثم انضمت النساء إلى المقاومة وسقط منهن شهيدات فى ساحة المعركة.

ويتذكر شاهد العيان المذكور قصة يقول أنه لا ينساها قائلاً: «الحق ان صورة المرأة الأفغانية وصبرها صورة شاملة للبطولة ولا أنسى امرأة أفغانية شاهدتها بنفسى «٩٠ سنة» وهذا أقل تقدير وقد تكون أكبر من ذلك، هاجرت من قريتها فى الشمال إلى الجنوب، تسير فى مناطق جبلية فوق الجليد، والمشى فوق الجليد فى الأماكن الجبلية شديد الصعوبة خاصة تحت القصف الجوى الروسى الذى لا ينقطع، وأول ما وصلت إلى الحدود سألوها: ما فائدة هجرتك تقول جملة واحدة فقط: أنا لا يمكن أن أجلس فى بلد يحكمه حاكم شيوعى.. لم تقبل على نفسها أن تبقى وفيها رمق فى بلد شيوعى وهى أمية تقرأ الفاتحة بصعوبة وسورة قصيرة أو سورتين على الأكثر.. إنها العقيدة، وهذه هى الأم فما بال أولادها، لا شك أن كلا منهم مجاهد شجاع».


الأدب والفن

الحديث عن الحرب، عن البطولات، عن المعارك التى تخوضها الشعوب، تسجيل الانتصارات والهزائم، العبر والدروس، كل هذا فريضة على كل أمة حين تريد أن يكون لها مستقبل، والفريضة تكون أكثر وجوباً وأشد إلزاماً على هؤلاء القادرين على ذلك من أصحاب الأقلام، الكاميرات، الفرش والألوان.. بل والمغنى الشعبى على السواء.

والله سبحانه وتعالى، لفت أنظارنا فى كتابه الكريم إلى ذلك، فقد أعطى القرآن الكريم مساحات واسعة لمناقشة المعارك التى خاضها المسلمون الأوائل ضد المشركين وحلل فيها أسباب النصر والهزيمة على السواء، والله سبحانه وتعالى يريد أن يعلم المسلمين درساً، لأن البلاد فى المعارك والانتصار فيها مرتبط أشد الارتباط وأوثقه بدراسة كل ما يتصل بالمعارك من دروس وعبر وتوازنات قوة وعلاقات مع المحيطين الداخلى والخارجى وغيرها من الظروف الخاصة بكل معركة.

وما زلنا حتى اليوم نقرأ فى كتاب الله الكريم دروس وعبر معارك بدر وأحد والخندق وحنين، بل والسرايا الصغيرة والكبيرة، والغزوات ضد يهود المدينة وغيرها من المعارك التى خاضها المسلمون الأوائل وما صاحبها من صراع سياسى وإعلامى.

إذن فتسجيل المعارك التى تخوضها الأمة، بكل ما يحيط بها، ليست ترفاً بل هى فريضة إسلامية، والقرآن الكريم لم يقتصر على سرد المعارك بل حللها، وركز على أسباب القوة والضعف، عوامل الانتصار والهزيمة، بل وسجل حتى الظروف النفسية للمقاتلين، لحظات الخوف،

لحظات الشك، إختلال موازين القوى وغيرها.

والاهتمام بالمعارك ليس أمراً قاصراً على المسلمين الأوائل، بل هو دور كل شعب يريد أن يصنع مستقبله.. ففى قصر فرساى بفرنسا مثلاً، تجد أن المصورين قد سجلوا كل معارك نابليون الكبيرة والصغيرة.. وهوليوود اهتمت بتسجيل معارك المهاجرين الأمريكيين ضد الهنود الحمر.. رغم ما فيها من تزوير واضح للتاريخ.. لأن من يفعلون ذلك يعرفون أنهم يصنعون مستقبل بلادهم، والرواية الشهيرة لتولستوى «الحرب والسلام» قد أخذت مكاناً متفرداً فى تاريخ الأدب وهى رواية سجلت الحرب الروسية الفرنسية.

بل ان إسرائيل لا تترك معركة صغيرة أو كبيرة إلا سجلتها حتى أنها أنتجت فيلماً سينمائياً عما يسمى بـ«عملية عنتيبى».

إذن فتسجيل البطولات والاعتزاز بالمعارك أمر بديهى لكل أمة وشعب بل إن الأمم أحياناً تبحث عن حادث صغير أو تافه لتصنع منه أسطورة تتغنى بها.. لأن تسجيل البطولات والمواقف عامل هام فى إيقاظ وشحذ الوعى والإيجابية والإنتماء.

ولا شك أن الحدث الأفغانى حدث يستحق التسجيل من حيث ظروفه وآثاره وملامحه ووقائعه.. وهو حدث خصب على كل مستوى يستطيع أن يقدم مادة خصبة جداً لأى عمل علمى أو فنى.. أدبى أو سينمائى.. بدءاً من التوثيق السياسى والعسكرى والاقتصادى ومروراً بالرسم والغناء والمسرح والسينما والإذاعة والتليفزيون والرواية والقصة القصيرة



وانتهاء بالملاحم الشعبية، والمادة هنا جاهزة ومتسعة بدءاً من مأساة ومعاناة شعب تحت الاحتلال وممارسات عسكر السلطة والاحتلال، وصبر وصمود هذا الشعب وكذلك علاقاته الإنسانية واليومية والحياتية تحت الاحتلال وكذلك بطولات أفراده أو مجموعاته ومعاركه الظافرة ضد قوات الاحتلال وما صاحبها من بعد اجتماعى وإنسانى، ولا شك أن الأديب والسينمائى والمسرحى والإذاعى والرسام سيجد مادة ثرية بل وعبقرية إذا ما تعامل مع الحدث الأفغانى، ولا شك أيضاً أن هذه مسئولية الأفراد كما هى مسئولية المؤسسات والهيئات بل والحكومات وهى مسئولية من يضطلع بها مأجور فى الدنيا والآخرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

رقم الإيداع ٩٢/٥٢٣٤
٩٧٧ ـ ٢٢٠ ـ ٠٥٥ ـ ٤